الشخصيات الروائية في ثلاثية نجيب محفوظ

الباحث/ ما شين الصيني

ملخص البحث:

يعد الكاتب نجيب محفوظ من أهم كتَّاب الرواية في العصر الحديث، وترك صفحة مجيدة في التاريخ الأدبي العربي عبر روايته "الثلاثية" التي تعد أعظم أعماله وأكثرها تأثيرا؛ لأنها سجّل فني عكس التغيرات الاجتماعية في مصر في القرن الماضي، فهي لا تعد أثرا خالدا من حياة الأديب فقط، بل تمثل واحدة من أفضل روائع الواقعية في تاريخ الأدب العربي الحديث أيضا، واحتلّت مكانة هامة في تاريخ الآداب العالمية.

تتميز شخصيات الرواية بمقومات جسمية ونفسية واجتماعية تنعكس على هيئتها وسلوكها وطباعها وأخلاقها، ويبرز لنا الكاتب أهم ملامحها ويبين ما فيها من مزايا وعيوب، كما أن لكل شخصية غاية تسعى إليها ودافعا يحملها على تحقيق هذه الغاية، وبما أن الشخصيات تختلف في طبيعتها وأخلاقها وغاياتها ودوافعها فلابد أن يحدث الصدام بينها وتحول المعوقات دون تحقيق أهدافها من خلال أحداث الرواية.

خلق نجيب محفوظ شخصيات الثلاثية بالاستعانة بشخصيات واقعية، فظهرت للقارئ شخصيات حية تحيا حياة كاملة تجيش بالعواطف والرغبات، وفي روايته سلط الضوء على الطبقة المتوسطة من تجار وموظفين وحرفيين من بين فئات الشعب المشتركة في الثورة، وابتعد عن شخصيات العمال والفلاحين، وهذا تفسير لبروز الحرية الوطنية، إذ أن شخصيات الثلاثية واقعية وليست مثالية واختياره لهذه شخصيات له أساس في الواقع مع إجراء بعض التعديلات على سماتها بحيث تكون أقرب إلى الواقع وأكثر تأثيرا؛ فحسن اختيار هذه الشخصيات ودقة رسمها تجعلنا نقترب أكثر من المثال الواقعي، وبالتالي خدمة الغرض الفني.

وتتم دراسة الشخصية بتحليل كل شخصية إلى عناصرها الأولية التي بناها الكاتب منها، وهي تأثير البيئة عليها وذكاؤها وثقافتها وطبيعتها وقيمها، ثم نرى تأثير هذه العناصر في سلوك هذه الشخصية من خلال دوافعها وغاياتها، وقد بذل محفوظ أعظم جهوده في خلق الشخصيات ليقدم للقارئ شخصيات نموذجية من الحياة الواقعية.

وهناك ما يبلغ منأكثر من ستين شخصية في الثلاثية بما فيها السيد أحمد والابن الأكبر ياسين والابن الثاني فهمي والابن الثالث كمال وزوجة أحمد أمينة إلى آخره، وسوف أقسم هذه الشخصيات إلى أربعة أجزاء؛ الجزء الأول: الحقوق الأبوية المستبدة، الجزء الثاني: الجيل الثاني ذو الشخصيات المتنوعة والجزء الثالث: يقظة الجيل الثالث، والجزء الرابع: صورة المرأة في الثلاثية.

الكلمات المفتاحية: نجيب محفوظ، الثلاثية، الشخصية الروائية، بين القصرين، السكرية، قصر الشوق.

Abstract:

The writer Naguib Mahfouz is considered one of the most important writers of the novel in the modern era, and left a glorious page in Arab literary history through his novel "The Trilogy", which is his greatest and most influential work; Because it is an artistic record that reflects the social changes in Egypt in the last century, it is not only an immortal trace of the life of the writer, but also represents one of the best masterpieces of realism in the history of modern Arabic literature, and it occupied an important place .in the history of world literature

The characters of the novel are distinguished by physical, psychological and social elements that are reflected in their appearance, behavior, character and morals. That a clash occurs between them, and obstacles prevent them from .achieving their goals through the events of the novel

Naguib Mahfouz created the characters of the trilogy using realistic personalities, so the reader appeared to live

characters who live a full life full of emotions and desires. , as the characters of the trilogy are realistic and not ideal, and his choice of these characters has a basis in reality, with some modifications made to their features so that they are closer to reality and more influential; The good selection of these characters and the accuracy of drawing them brings us closer .to the realistic example, and thus serves the artistic purpose

The character is studied by analyzing each character into its primary elements that the writer built from it, which are the influence of the environment on it, its intelligence, culture, temperament, and values. Then we see the impact of these elements on the behavior of this character through its .motives and goals. real life

There are more than sixty characters in the trilogy, including Mr. Ahmed, the eldest son Yassin, the second son Fahmy, the third son Kamal, Ahmed's wife Amina, etc., and I will divide these characters into four parts; The first part: tyrannical patriarchal rights, the second part: the second generation with diverse personalities, the third part: the awakening of the third generation, and the fourth part: the .image of women in the trilogy

Keywords: **Naguib Mahfouz**, **the trilogy**, **the fictional character**, **Bain al–Qasrayn**, **al–Sukkariyya**, **Qasr al–Shawq**.

أولا– التعريف بالكاتب المصري نجيب محفوظ:

في يوم ١٣ أكتوبر في عام ١٩٨٨، دق جرس استوكهولم من أجل إيقاظ الشرق ؛ فقد كان الاسم العربي يستحق فخر العالم كله، فقبل ٣٤ عاما بالتمام والكمال حبس العالم العربي أنفاسه مع أهم حدث دولي في تاريخ الأدب العربي، فعلها ابن القاهرة، وجنى حصاد السنين، ونال المرتبة الأدبية الأرفع في جميع أنحاء العالم. استقبلت مصر في هذا اليوم خبر حصول أحد الكتاب المصريين على جائزة نوبل للآداب التي حفر بها اسمه في صفحات التاريخ كأول أديب عربي يحصل على الجائزة الرفيعة، وما زال محفوظ يتربع حتى الآن على قوائم الشرف في نوبل بين كل الأدباء العرب.

هو نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا الروائي ، والكاتب المصري مشهور في العالم، سُمي نجيب محفوظ باسمٍ مركب تقديراً من والده "عبد العزيز إبراهيم" للطبيب المعروف نجيب باشا محفوظ، والذي أشرف على ولادته التي كانت متعسرة.

وُلد نجيب محفوظ في أسرة تنتمي للطبقة البرجوازية الوسطي في حي الحسين بالقاهرة، في ٨ ديسمبر ١٩١١م. تكونت أسرته من ٨ أفراد هم أبوه، وأمه، وأربع أخوات، وشقيقان. كان نجيب محفوظ أصغر إخوته، ولأن الفرق بينه وبين أقرب إخوته سناً إليه كان عشر سنواتٍ، فقد عومل كأنه طفلٌ وحيد. كان أبوه موظفا يعمل في الحكومة شديد الالتزام والتنظيم، يعود إلى البيت كل يوم بعد انتهاء العمل ، ويظل جالسا ويمضي وقته بين الصلاة وقراءة القرآن ، والجلوس في حالة صمت تام لساعات طويلة حتى بعد تناول العشاء ، ولم يكن من هواة القراءة والكتاب الوحيد الذي قرأه بعد القرآن الكريم هو (حديث عيسى بن هشام) ؛ لأن مؤلفه محمد كان صديقا له. بعد استقالة والده، كان أبوه يحب –مع أصدقائه –الجلوس في المقاهي وقضاء وقتهم في الضحك والنكات. تأثر أسلوب كتابته –الذي يحب الجلوس في مقهى – بأسلوب حياة أبيه. كما قال عن أسباب اختياره للفوز بجائزة نوبل، أسند محفوظ، ذلك إلى نشأته هو وجيله في أحضان التراث وقراءتهم للقرآن والحديث والأدب العربي، ثم أدب العصر الحديث بداية من " البارودي وصولا إلى العقاد".

ذكر نجيب محفوظ في مذكراته أن والده كان يعامله بحنان ولطف ولم يضربه في حياته الا مرة واحدة، ولهذه (العلقة) قصة، فعندما كان يسكن في ميدان بيت القاضي الذي تحتله عساكر

الانجليز، وكان أبوه يمنع فتح النوافذ المطلة على الميدان، لأن الانجليز كانوا يعتبرون النوافذ المفتوحة تهديدا لهم. ذات يوم نجيب محفوظ كان يقلد حركاتهم وأصواتهم عند تغيير الطابور العسكري بجانب النوافذ، وفجأة وجد أبيه واقفا فوق رأسه ينظر له بغضب شديد، ثم ضربه بعصا على باطن قدميه. كانت المرة الأولى والأخيرة التي ضرب فيها نجيب محفوظ في حياته.

اهتم أبوه بتعليم الأولاد، لكن بالنسبة لأخوات نجيب محفوظ أتيح لهن قدرا من التعليم يعتبر معقولا في ذلك العصر في أوائل القرن العشرين، أما بالنسبة لأخوته فقد اهتم بتعليمهم حتى النهاية. وكانت غاية أمل أبيه أن يلتحق أخوة نجيب محفوظ بسلك القضاء أو الطب، ولذلك غضب من شقيقه محمد لأنه التحق بالكلية الحربية، أما شقيقه الثاني إبراهيم فقد تخرج في مدرسة المعلمين العليا، وعمل مدرسا للرياضيات والعلوم، وعندما أصبح ناظر مدرسة نُقل إلى ديوان المحاسبة، وأحيل إلى المعاش وهو مراقب حسابات وتوفي في العام الذي قتل فيه الرئيس الراحل أنور السادات، أي في سنة ١٩٨١م.

أما بالنسبة لنجيب محفوظ، فقد أحبه والده حبا شديدا، كما قال نجيب محفوظ في مذكراته:" **كنت في المرحلة الابتدائية، وأحببت الدراسة، وشعرت بالمسئولية، وكنت دائما من الاوائل وأحصل على نتائج طيبة جدا، هذا التفوق كان مصدر سعادة لوالدي الذي بدأ يدللني ويزيد في مصروفي وفي الهدايا التي يقدمها لي، حتى ظن كثيرون من أصحابي أنني من أسرة ثرية. وطوال دراستي الابتدائية والثانوية كانت علاقتي بوالدي طيبة للغاية، ولم أسمع منه أي عبارة لحثي على الدراسة أو أي إنذار أو عقاب في حالة إهمالي لدروسي، لم يقل لي شيئا من هذا القبيل، لأنه كان يلاحظ اهتمامي بالتعليم وحرصي على التحصيل. وعندما وصلت إلى الشهادة العليا في آخر المرحلة الثانوية، وكان اسمها «البكالوريا» على أيامنا، كان أمل والدي أن ألتحق بكلية الحقوق أو الطب، لأكون أما وكيل نيابة أو طبيبا؛ فهاتان الوظيفتان في رأيه هما أحسن وظيفتين في مصر. ولذلك أصيب بصدمة عندما أخبرته أنني أنوي الالتحاق بقسم الفلسفة بكلية الآداب، وقال لي: يا بنى التحق بكلية الحقوق تصبح مثل ابن عمك وكيلاً للنيابة، تمشى ووراءك عسكري. ودارت بيننا مناقشات كثيرة حول هذا الأمر، وكانت المناقشة الديمقراطية بين الآباء والأبناء في ذلك الوقت أمرا غريبا، لأنه في إمكان الأب حسم**

أي مشكلة بكلمة واحدة وتنتهي فورا، ولكن يبدو أن كثرة عدد أولاده أربعة بنات وثلاثة أولاد، علمت أبي المرونة.[١]

أما والدة نجيب محفوظ فهي "فاطمة مصطفي قشيشة"، ابنة الشيخ "مصطفي قشيشة"، وهو من علماء الأزهر. وعلى الرغم من أنها لا تقرأ ولا تكتب، إلا أنها كانت مخزنا للثقافة الشعبية، وكانت تحب زيارة سيدنا الحسين باستمرار، وفي الفترة التي عاشها نجيب محفوظ مع أهله في الجمالية طلبت منه أمه أن يصطحبها في زيارتها اليومية لمسجد الحسين. وبعد أن كبر نجيب محفوظ ولم يعد الطفل المطيع ، ولم يعد من السهل أن تجره أمه، كانت تذهب إلى سيدنا الحسين بمفردها. وفي كل المرات التي يرافقها نجيب إلى سيدنا الحسين، تطلب منه أمه قراءة الفاتحة عنددخول المسجد وأن يقبل الضريح، كل هذه الأشياء تبعث في نفسه الرهبة والخشوع.

بالإضافة إلى ذلك، كانت أمه أيضا دائمة التردد على المتحف المصري وتحب قضاء أوقات في حجرة المومياات، وكانت تذهب بنفس الحماس لزيارة الآثار القبطية وخاصة دير مارجرجس. كل هذه الأشياء تثبت أن الشعب المصري لم يعرف التعصب ، وأن هذه هي روح الإسلام الحقيقية، وقد تأثر نجيب بهذا التسامح الجميل. وعلاقته بوالدته كانت أوثق من علاقته بوالده لانشغال والده في العمل، ومات والده عام ١٩٣٧، وعاشت أمه بعد وفاة أبيه سنوات طويلة إلى أن تجاوز عمرها المائة عام، وتوفيت عام ١٩٦٨. وفي نفس السنة حصل نجيب على جائزة الدولة التقديرية.

أما العلاقة بين والديه فقد كانت مثالا للاحترام والحب، ولم يتشاجرا مرة واحدة أمام نجيب محفوظ لذلك كان يقضى فترة طفولته بفرح ومرح في هذه الأسرة في حي الحسين، ويقول عن ذلك: "**هذا المكان يسكن في وجداني، عندما أسير فيه أشعر بنشوة غريبة جدا، أشبه بنشوة العشاق، كنت أشعر دائما بالحنين إليه لدرجة الألم، والحقيقة أن ألم الحنين لم يهدأ إلا بالكتابة عن هذا الحي، حتى عندما اضطرتنا الظروف لتركه والانتقال إلى العباسية كانت متعتى الروحية الكبرى هى أن أذهب لزيارة الحسين.**"[٢]

وعندما بلغ نجيب محفوظ الرابعة من عمره التحق بالمسجد لدراسة العلوم الإسلامية والمعلومات الدينية عن القرآن الكريم ، تخرج في إحدى المدارس الإعدادية والتحق بالمدرسة الثانوية

وكان متفوقا في الرياضيات والعلوم، لكنه اختار القسم الأدبي في البكالوريا، هذا الأمر كان غريبا بالنسبة لكل المحيطين به، لأنه كان ينجح بصعوبة في المواد الأدبية، خاصة الجغرافيا والتاريخ واللغتين الانجليزية والفرنسية، وحصل بمشقة على الدرجة المتوسطة، والمادة الأدبية الوحيدة التي تفوق فيها هي اللغة العربية. ورغم ذلك دخل القسم الأدبي، وكان عدد طلبة البكالوريا في تلك السنة حوالي ٢٠ ألفا، حصل على مجموع ٦٠ % وجاء ترتيبه العشرين على المدرسة ثم نجح في البكالوريا عام ١٩٣٠م. التحق محفوظ بجامعة القاهرة في عام ١٩٣٠م .في فترة الدراسة كان محفوظ يدرس أفكارا فلسفية ومذاهب فكرية مختلفة ، بالإضافة إلى ذلك تعرف على الديمقراطية الغربية والأفكار الاشتراكية خلال المرحلة الجامعية. كل هذه الأفكار تأثر به تأثيرا كبيرا في كتابته المستقبل. وفي السنة الأخيرة لدراسة محفوظ أدرك ميله الشديد إلى الأدب، وأراد التخصص في الأدب إلى جانب الفلسفة، ولكن صديقه عباس محمود أخبره بأن هذا مستحيل لمخالفته النظم المعمول بها وقتئذ، وأثناء إعداده لرسالة الماجستير وقع فريسة لصراع حاد فكان يتساءل كل ليلة فلسفة أم أدب؟ كان صراعا حادا من الممكن أن تكون له عواقب خطيرة، لكنه اختار الأدب في النهاية، وهنا شعر براحة عميقة، راحة لا مثيل لها، وقد عبر عن ذلك بقوله: "**عندما كنت آخذ كتاب الفلسفة بيدي وآخذ رواية لتوفيق الحكيم أو طه حسين بيدي الأخرى أقع في حيرة، وفي الوقت نفسه، تدخل المدارس الفلسفية المختلفة إلى ذهني من جانب، ويدخل أبطال الروايات من الجانب الآخر. لقد شعرت بأنني في نضال قاس بين الفلسفة والأدب. لا يستطيع أحد معرفة حجمه إلا بعد أن يمر به. في هذا الوقت، إما أن أتخذ قرارًا أو أصاب بالجنون. كان أبطال رواية أهل الكهف لتوفيق الحكيم والفلاحون في رواية الأيام لطه حسين يظهرون في عقلي كمسيرة في مظاهرة. في النهاية قررت ترك الفلسفة والسير في طريق الأدب.**"[3]

بعد التخرج في الجامعة شغل محفوظ منصب سكرتير برلماني في وزارة الأوقاف في ١٩٣٨م، وحتى ١٩٤٥م. كما شغل منصب مدير مؤسسة القرض الحسن في وزارة الأوقاف حتى ١٩٥٤م ، في نفس السنة وتزوج من زوجته عطية الله التي صاحبته طوال حياته. لكن قبل الزواج عاش حياة عربدة كاملة، كان من رواد دور البغاء الرسمي السري، ومن رواد الصالات والكباريهات.

كانت نظرته للمرأة في ذلك الحين جنسية بحتة، ليس فيها أي دور للعواطف أو المشاعر، وإن كان يشوبها أحيانا شيء من الاحترام. بعدما فكر في الزواج والاستقرار تغيرت هذه النظرة إلى الاعتدال. ولم تنشأ بين محفوظ وعطية الله قصة حب قبل الزواج. كان في حاجة إلى مساعدته على الكتابة ولا تنغص حياته. وزوجته تفهم أسلوب حياته، هي تعرف أنه قد وهب حياته كلها للأدب.

ليس معنى ذلك أنه مشغول على الدوام؛ ففي أوقات الفراغ، كان يجلس مع زوجته لسماع الإذاعة أو مشاهدة التلفزيون، بعد إنجاب البنتين أم كلثوم وفاطمة خصصوا يوما في الأسبوع يخرجون فيه، ويذهبون لمشاهدة أحدث الأفلام السينمائية أو التنزه في الحدائق العامة. مع مرور السنوات لا يمكن إنكار حقيقة أن زوجته عطية الله تحملته كثيرا. كما ذكر في مذكراته:" **هي تساعدني على تطبيق النظام الصارم الذي فرضته على حياتي، ووفرت لي جوا مكنني من التفرغ للكتابة، وحاولت بقدر طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني ويشغل تفكيري، إذا كان لأحد فضل في المكانة التي وصلت اليها، فزوجتي في المقدمة، جزاها الله كل خير.**"[٤] وبعد ذلك شغل منصب مدير مكتب وزير الإرشاد. ثم منصب مدير للرقابة على المصنفات الفنية في وزارة الثقافة. وعمل مديرا عاما في مؤسسة دعم السينما في ١٩٦٠م، ثم رئيس مجلس الإدارة العامة للسينما والإذاعة والتلفزيون. آخر منصب حكومي شغله محفوظ كان رئيس مجلس إدارة المؤسسة العامة للسينما في ١٩٦٦م، وحتى ١٩٧١م. ثم تقاعد بعدها ليصبح أحد كتاب مؤسسة الأهرام.

بدأ نجيب محفوظ الكتابة؛ بكتابة المقالات الفلسفية في مجلات وصحف مختلفة في الفترة بين ١٩٣٠م، و١٩٣٩م، ثم اتجه بعد ذلك للكتابة الأدبية. صُدرت روايته الأولى عبث الأقدار عام ١٩٣٨م، ونشرها له سلامة موسى صاحب "المجلة الجديدة"، والذي كان ينشر مقالات نجيب محفوظ منذ أيام دراسته في الثانوية. وفي عام ١٩٤٧ م بدأ بكتابة سيناريوهات لأفلام السينما، واستمر حتى عام ١٩٦٠م. وفي فترة لاحقة كان يكتب زاوية أسبوعية في جريدة الأهرام بعنوان "وجهة نظر" حول مواضيع سياسية، واجتماعية. استمر في كتابة تلك الزاوية بانتظام من عام ١٩٨٠م، حتى توقف عام ١٩٩٤ م بسبب حادثة الطعن. ثم استأنف الزاوية على شكل

حوارات أسبوعية يجريها مع الكاتب محمد سلماوي. واستمرت الحوارات حتى قبيل وفاته عام ٢٠٠٦م.

تُوفي نجيب محفوظ في بداية ٢٩ أغسطس ٢٠٠٦م عن عمر ناهز ٩٥ عاما إثر قرحة نازفة بعد عشرين يوماً من دخوله مستشفى الشرطة، في حي العجوزة، في محافظة الجيزة، لإصابته بمشكلات صحية في الرئة، والكليتين. وكان قبلها قد دخل المستشفى في يوليو من العام ذاته لإصابته بجرح غائر في الرأس إثر سقوطه علي الشارع.

أراد نجيب محفوظ استعارة الماضي للتعبير عن الحاضر وانتقاد العدوان الاستعماري البريطاني على مصر عبر كتابة الرواية التاريخية، في الوقت نفسه للتعبير عن الأمنيات الوطنية للشعب في السعي إلى الحرية والاستقلال والتحرر. لم يكتب نجيب محفوظ القصة القصيرة بهدف كتابة القصة القصيرة، فقد أراد كتابة الروايات منذ البداية، ودار بها على الناشرين الذين رفضوا نشرها، ولأنه كان يريد أن ينشر، فقد كتب القصة القصيرة، هذا هو الدافع إلى كتابته للقصة القصيرة، وهنا يلاحظ أنه أخذ موضوعات بعض هذه القصص من رواياته وليس العكس.

كان محفوظ يبذل أعظم الجهود في قراءة التاريخ، والبحث في اختيار الموضوعات من التاريخ المصري، واستخرج من صفحاته حوالي خمسة وثلاثين أو أربعين موضوعا. لكن بعد ذلك قال محفوظ:" **بعد أن كتبت هذه الخطط، لكن هذه الرغبة، أو هذا الدافع مات بعد رواية "كفاح طيبة"، ماتت الرغبة كما حدث فيما بعد إثر انتهائي من كتابة الثلاثية، مات التاريخ، ما الذي أحياه، ما السبب في موته؟ لا أدري.....**

لقد كان هناك مد فرعوني، وهو مد كانت له مبرراته الموضوعية، اذ إن العصر الفرعوني هو المرحلة المضيئة الوحيدة في مواجهة الواقع المر الذي كنا نعيشه، كان كفاح طيبة ضد المحتل الانجليز، والحاكم التركي القابع في السراي، كنت أغنى ضد الانجليز، وضد الأتراك.....درست كل ما يتعلق بالعصر الفرعوني، الحياة اليومية، وسائل الحرب، الدين، كيف ألقيت بهذا المجهود الكبير بعد كفاح طيبة وأكتب "القاهرة الجديدة". ربما لأن التاريخ أصبح عاجزا عن أن يمكنني من قول ما أريده. ربما كنت أريد الدخول مباشرة في معالجة الموضوعات الاجتماعية، قد يكون هذا كله صحيحا، لم أعد إلى التاريخ فيما بعد. بل انني

اعتبرت الجهد الذي بذلته في دراسة التاريخ جهدا ضائعا لأنني لم أرجع اليه فيما بعد لم أستفد منه، وإن كان قد ترك أثرا في تكويني، قد لا أعيه، لكنه حقيقي، الآن تبدو عودتي إلى التاريخ صعبة، لكن من يدري، قد أعود إلى التاريخ يوما فكثيرا ما يستعصي علينا حاضرنا. ."[5]

وبدءاً من منتصف الأربعينيات بدأ نجيب محفوظ خطه الروائي الواقعي الذي حافظ عليه في معظم مسيرته الأدبية برواية "القاهرة الجديدة١٩٤٤"، ثم "خان الخليلي"١٩٤٧، و"زقاق المدق١٩٤٧، و"البداية والنهاية١٩٤٩" مع أشهر أعماله وهي "الثلاثية" هي:"بين القصرين" و"قصر الشوق"و "السكرية" وكان موضوع هذه الروايات طبيعة حياة الطبقة البرجوازية الوسطى في القاهرة خلال فترة الاستعمار وشبه الإقطاعية. كان محفوظ يصف مأساة الجيل كله عبر شقاء الفرد والأسرة والحي.

بالإضافة إلى ذلك، يتناول هذا البحث روايات "بين القصرين"و" قصر الشوق" و" السكرية" من مجموعة الثلاثية التي نشرت في عام ١٩٥٦ و١٩٥٧ رغم أنه أكملها قبل الثورة المصرية بثلاثة شهور أي أبريل في عام ١٩٥٢، على الرغم من أن الثلاثية جلبت له سمعة طيبة، لكن في الوقت نفسه جلبت له صدمة حادة في مرحلة بداية الكتابة؛ بعد أن كتب "عبث الأقدار"و"بداية ونهاية"و "خان الخليلي"و"السراب" بدأ كتابة الثلاثية، وبعد إكمالها ذهب إلى سعيد السحار المسئول عن دار النشر. في ذلك الوقت كانت الثلاثية رواية واحدة عنوانها "بين القصرين"، نظر سعيد السحار إلى الرواية، وسأل محفوظ: ما هذا؟ قال له: رواية جديدة "بين القصرين" أمسك بالرواية وقلب صفحاتها الألف، وقال لمحفوظ كيف أطبعها؟ مستحيل. عاد محفوظ إلى منزله وكان حزينا جدا! وبعد ذلك ساعده صديقه يوسف السباعي وأخذ "بين القصرين" كلها. وكانت نسخة مخطوطة، ونجح في نشرها في مجلة الرسالة الجديدة، لكن صدور الثلاثية في كتاب واحد مستحيل بسبب ضخامته، فاقترح يوسف أن تقسم الثلاثية إلى ثلاثة أجزاء بدلا من ثلاث فترات. أما اسمها فيسمى "بين القصرين"و"قصر الشوق"و"السكرية"، وبعد صدور الثلاثية انتشرت بسرعة، وكانت أول كتاب يروج له خارج السلسلة الشعبية: بين القصرين، ثم توالت الطبعات والرواج أيضا.

في الحقيقة إن فكرة الثلاثية جاءته على دفعات؛ لأنه قد قرأ في كتاب عن فن الرواية التى يسمونها رواية الأجيال أو رواية الأزمان التي تعرض أجيالا عديدة متوالية، وأعجبه كثيرا هذا الشكل. ثم قرر أن يكتب رواية على نفس النمط، في هذه الأثناء أصدر طه حسين روايته "شجرة البؤس"، هذه الرواية تشبه رواية الأجيال، لكنها قصيرة، مما جعل نجيب محفوظ يجدد عزمه على كتابة رواية الأجيال. ثم بدأ بقراءة الروايات الكبرى التى تعرض للأجيال، مثل "" ملحمة أسرة فورسات" لجولزورثى، و"الحرب والسلام" لتولستوي، و"آل بودنبروك" لتوماس ما. وبعد ذلك استعد لكتابة الثلاثية.

في السنوات التي سبقت صدور الثلاثية كانت التفاصيل تتراكم من هنا وهناك، من جلسة، ومن حوار ومن سهرة، واستعان في رسم المائة شخصية بشخصيات لها أصول واقعية، بعضها من عائلته، وبعضها من جيرانه، وبعضها من أقاربه، وكان لكل شخصية ما يشبه الملف حتى لا ينسى الملامح والصفات ومن أجل الحفاظ على وحدة الاتجاه في الرواية، كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكره إطلاقا حتى فترة الاجازة، فما زال يعايش الشخصيات والأحداث.

احتلت هذه الشخصيات جزءا كبيرا من عقله وقلبه، يقول عن ذلك: "**إن أكبر صراع خضته في حياتي كان مع اللغة العربية. في الرواية تجد أسلوبا قرآنيا كما تعلمنا في المدرسة.. إن الأسلوب لا علاقة له بالموضوع، عندما جئت إلى الأدب الواقعي، كان أمرا صعبا، كان الأسلوب لا يمشي في يدي، لا يطاوعني، دخلت في صراع بلا شعور بيني وبين اللغة، وكيف أذلل اللغة؟ كيف أطوعها؟ كيف يكون الحوار مقبولا مع أنه صفيح، لذلك إذا استعرضت بعض القصص الأولى ستجد أشياء مضحكة، على سبيل المثال ربما تجد شخصية في مقهى بلدي وتتحدث بأسلوب فصيح متقعر، لم يكن هناك مثال أحتذيه. كل العباقرة الذين سبقونا لم يكتبوا عن أحياء شعبية، إذا كتب، فإنه يكتب الحوار بالعامية، ليست هنا مشكلة، إنما أن تطور اللغة كي تصبح فنية وواقعية، فتلك مشكلة، وهذا أصعب ما وجدته، أو صادفته في حياتي الروائية.**"[٦]

بعد اكتمال الثلاثية، أحب محفوظ الجلوس في المقاهي، وتابع تفاصيل الحياة اليومية وحكايات الناس، لأن الواقعية تقتضي الاهتمام بالتفاصيل مهما كانت صغيرة، استغرقته الواقعية فترة طويلة

حتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، ثم فوجئ بواقع جديد وقضايا جديدة ونوع جديد من التفكير ظهر في المجتمع، هذه التغيرات أدخلته في حالة من التأمل والتفكير ، وجعلته يدخل في حالة صمت أدبي، هذه الفترة استمرت خمس سنوات، انتقل خلالها من الواقعية الاجتماعية إلى الواقعية الرمزية. وكان العمل الأول الذي كتبه بعد الثورة وبعد سنوات الانقطاع هو "أولاد حارتنا" ثم بدأ نشرها مسلسلة في جريدة الأهرام في ٢١ سبتمبر ١٩٥٠م. ترمز هذه الرواية لدخول نجيب محفوظ إلى المرحلة الجديدة التي يسميها المرحلة الواقعية الجديدة لتمييزها عن الواقعية التقليدية. وفيها استسلم نجيب لهواية استعمال الحكايات الكبري من تاريخ الإنسانية في قراءة اللحظة السياسية، والاجتماعية لمصر ما بعد الثورة، ليطرح سؤالا على رجال الثورة عن الطريق الذي يرغبون في السير فيه (طريق الفتوات أم طريق الحرافيش؟)، وأثارت الرواية ردود أفعالٍ قوية تسببت في وقف نشرها والتوجيه بعدم نشرها كاملة في مصر، رغم صدورها في ١٩٦٧م عن دار الآداب اللبنانية.

" لم يكن من بين أحلامي الحصول على جائزة نوبل في الأدب، ولم أتطلع إليها في يوم من الأيام، وكنت أكن من الكتاب العرب المهتمين بها. ربما يعود ذلك إلى أسباب كثيرة، منها: أننا جيل نشأ على «عقدة الخواجة»، وهي العقدة التي أحدثت في نفوسنا نوعا من عدم الثقة بإمكانياتنا، خاصة أن ذلك العصر كان مليئا بالعمالقة من الكتاب العالميين، الذين كانوا يمثلون بالنسبة لى رموزا وأساتذة، مثل: برنارد شو وتوماس مان واناتول فرانس، وجان بول سارتر، وألبير كامي. كما كان لدينا كتاب عمالقة من أمثال عباس محمود العقاد الذي كنت أرى أنه يستحق الجائزة عن جدارة، وربما فاق في موهبته عددا من الأدباء الذين حصلوا عليها. لم أضع جائزة نوبل في ذهني أبدا، وأحمد الله على ذلك، فلو كنت أعطيتها اهتماما مبالغا فيه، لكان حدث لى «حرق دم» من متابعتها سنويا، أو من انتظار وصولها إلى. وحتى يوم إعلان الجائزة" [٧]

مثل هذا الرجل البسيط لم يتوقع أنه سيفوز بجائزة نوبل في يوم من أيام. لكن عندما دق جرس من استوكهولم في الخميس ١٣ من أكتوبر في عام ١٩٨٨م. قالت له زوجته أنه حصل على جائزة نوبل " فلم يثق بكلامها، وعندما اتصل أحد من جريدة "الأهرام" ليهنئه على حصوله على الجائزة لم يصدق أيضا ، وظن أنهم يمزحون معه فقط، حتى قام سفير السويد وحرمه بزيارته في منزله فتأكد

من صحة الأمر، ومن المعروف أن الأديب الكبير نجيب محفوظ لا يحب السفر إلى الخارج، فلم يسافر لاستلام جائزة نوبل، وأوفد ابنتاه لاستلامها.

في أكتوبر ١٩٩٥ م طُعن نجيب محفوظ في عنقه على يد شابين قد قررا اغتياله، لاتهامه بالكفر والخروج عن الملة بسبب روايته المثيرة للجدل، لم يمت نجيب محفوظ جراء هذه المحاولة، ولكن تضررت أعصاب الطرف الأيمن العلوي من الرقبة بشدة إثر هذه الطعنة، وكان لهذا تأثيرٌ سلبي على عمله، حيث إنه لم يعد قادرًا على الكتابة سوي لبضع دقائق يوميًا. وفيما بعد أُعدم الشابان المشتركان في محاولة الاغتيال رغم تعليقه بأنه غير حاقدٍ على من حاول قتله، وأنه تمني لو أنهما لم يُعدما.

وخلال إقامته الطويلة في المستشفى زاره محمد الغزالي، والذي قد طالب بمنع نشر أولاد حارتنا، وعبد المنعم أبو الفتوح، وهو القيادي السابق في حركة الإخوان المسلمين، وهي زيارة تسببت في هجوم شديد من جانب بعض المتشددين على أبو الفتوح.

كما اتجه محفوظ في مرحلة متقدمة من مشواره الأدبي إلى مفاهيم جديدة كالكتابة على حدود الفنتازيا كما في رواياته: الحرافيش، ليالي ألف ليلة. والأحلام كما في: أصداء السيرة الذاتية، وأحلام فترة النقاهة، واللذان اتسما بالتكثيف الشعري، وتفجير اللغة والعالم.

وتعتبر مؤلّفات محفوظ من ناحية بمثابة مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية في مصر، ومن ناحية أخري يمكن اعتبارها تدويناً معاصراً لهم الوجود الانساني، ووضعية الإنسان في عالم يبدو وكأنه هجر الله أو هجره الله، كما أنها تعكس رؤية المثقّفين على اختلاف ميولهم إلى السلطة.

ثانيا– شخصيات الثلاثية:

تتميز شخصيات الرواية والمسرحية بمقومات جسمية ونفسية واجتماعية تنعكس على هيئتها وسلوكها وطباعها وأخلاقها، ويبرز لنا الكاتب أهم ملامحها ويبين ما فيها من مزايا وعيوب، كما أن لكل شخصية غاية تسعى إليها ودافعا يحملها على تحقيق هذه الغاية، وبما أن الشخصيات تختلف في طبيعتها وأخلاقها وغاياتها ودوافعها فلابد أن يحدث الصدام والصراع بينها وتحول المعيقات دون تحقيق غاياتها وأهدافها من خلال أحداث الرواية.

خلق نجيب محفوظ شخصيات الثلاثية بالاستعانة بشخصيات واقعية، كما قال: **هذه الشخصيات بعضها من عائلته، وبعضها من جيرانه. بعضها من أقاربه. كل شخصية كان لها ما يشبه الملف، حتى لا ينسى الملامح والصفات. من أجل الحفاظ على وحدة الاتجاه في الرواية، كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكره إطلاقا حتى فترة الإجازة، ما زال يعايش الشخصيات والأحداث. إن هذه الشخصيات تحتوي جزءا كبيرا من عقله وقلبه.**[8] بالإضافة إلى ذلك، صمم نجيب محفوظ لكل شخصيات ما يشبه الملف حتى لا ينسى ملامحها وصفاتها، وكان النموذج الأصلي لكل الشخصيات مأخوذا من طبيعة وظيفته التي استمرت لسبع وثلاثين سنة. وقال: **"أعطتني حياتي في الوظيفة مادة إنسانية عظيمة وأمدتني بنماذج بشرية لها أكثر من أثر في كتابتي..... أمدتني الوظيفة بنماذج بشرية كانت غائبة عن حياتي. فأنا أعرف الأسرة والجيران والمدرسة والجامعة والمقهى، ثم أتاحت لي الوظيفة مجالا حيويا مختلفة فعرفت نماذج جديدة لم أكون أعرفها....**[9].

لذلك خلق نجيب محفوظ من أبطال روايته "الثلاثية" شخصيات حية تحيا حياة كاملة تجيش بالعواطف والرغبات، وفي روايته سلط الضوء على الطبقة المتوسطة من تجار وموظفين وحرفيين من بين فئات الشعب المشتركة في الثورة، وابتعد عن شخصيات العمال والفلاحين، وهذا تفسير لبروز الحرية الوطنية، إذ أن شخصيات الثلاثية واقعية وليست مثالية واختياره لهذه الشخصيات له أساس في الواقع مع إجراء بعض التعديلات على سماتها بحيث تكون أقرب إلى الواقع وأكثر تأثيرا؛ فحسن انتقاء هذه الشخصيات ودقة رسمها تجعلنا نقترب أكثر من المثال الواقعي، وبالتالي خدمة الغرض الفني.

وتتم دراسة الشخصية بتحليل كل شخصية إلى عناصرها الأولية التي بناها الكاتب منها، وهي تأثير البيئة عليها وذكائها وثقافتها وطباعها وقيمها، ثم نرى تأثير هذه العناصر في سلوك هذه الشخصية من خلال دوافعها وغاياتها، وقد بذل محفوظ أعظم جهود في خلق الشخصيات ليقدم للقارئ شخصيات نموذجية من الحياة الواقعية.

هناك ما يبلغ من أكثر من ستين شخصية في الثلاثية بما فيها السيد أحمد والابن الأكبر ياسين والابن الثاني فهمي والابن الثالث كمال وزوجة أحمد : أمينة إلى آخره، وسوف أقسم هذه

الشخصيات إلى أربعة أجزاء؛ الجزء الأول: الحقوق الأبوية المستبدة، الجزء الثاني: الجيل الثاني ذو الشخصيات المتنوعة والجزء الثالث: يقظة الجيل الثالث، والجزء الرابع: صورة المرأة في الثلاثية.

الجزء الأول: الحق الأبوي المستبد

إن السيد أحمد عبد الجواد من أبرز الشخصيات النموذجية التي خلقها نجيب محفوظ في روايته الثلاثية؛ فهو يرمز لطبقة نموذجية من الطبقة الوسطى في المجتمع المصري في السنوات الأولى في هذا القرن، وفي رواية بين القصرين، كان أحمد ممثلا للأسرة وحاكما لها، فعندما تراه زوجته وأولاده، لا يشعرون بالفرح والمرح، بل يشعرون بالخوف، ولا يسمح لأي شخص بتهديد سلطته في المنزل أبدا، وتتضح هذه النقطة بشكل كبير في حادثة "طرد أمينة"، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الشخصية لها جانبين؛ فرغم أنه صارم وفظ، لكنه ميال إلى عمل الخير "محب للخير".

عندما يتعامل مع أولاده وزوجته، يبدو أنه صارم جدا، لكنه يتعامل مع أصدقائه بلطف، كما قال د. غالي شكري شخصية عبد الجواد:" **هو الأب القاسي المستبد، الذي يتنازع نفسه التناقض، فهو ابن حظ في الخارج، يسير إلى ما بعد منتصف الليل، حتى إذا دخل البيت، تغيرت أوضاع وجهه، وعروقه تبرز، وعيناه تحمران، وشعيرات شنبه تنتصب...**"[١٠]، حتى زوجته أمينة تسمع الكلام بين زوجها وأصدقائه ولا تثق بأن هذا الصوت لزوجها :" **كانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة، لولا أنها تسمعه كل ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه هي وأبناؤها. الا الحزم والوقار والتزمت، فمن أين له بهذه النبرات الطروب الضحوكة التي تسيل بشاشة ورقة؟**"[١١] .

بالإضافة إلى ذلك، هو حريص على أوقات الصلاة:" **أدى فريضة الصبح، صلى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقى به أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التي ألانها التزلف والتودد والاستغفار. لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤديها بنفس الحماس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي يتقلب فيها جميعا، كما يعمل فيتفانى في عمله، ويصادق فيفرط في مودته، ويعشق فيذوب في**

عشقه، ويسكر فيغرق في سكره. مخلصا صادقا في كل حال، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى.[١٢] إلا أن هناك وجه آخر لشخصية السيد أحمد عبدالجواد لا يعرفه أحد في أسرته؛ إذ يتعامل مع أصدقائه بمرح شديد، ويسهر كل ليلة مع الخمر والمومسات والعود والطرب، حتى أنه كان على علاقة غير عادية مع زوجة جاره، ويمكنه أن يتحول بين عبادة الله والفساد دون أي قلق من ضميره: "**أم كان في اعتقاده في السماحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا، وحتى في حال تحريمها فهي حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحدا؟! الأرجح أنه كان يتلقى الحياة بقلبه وإحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل، وجد بنفسه غرائز قوية، يطمح بعضها الله فراضها بالعبادة، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون أن يشق على نفسه بالتوفيق بينها. لم يكن يضطر إلى تبريرها بفكره إلا تحت ضغط انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولي عبد الصمد، وفي هذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهما أمام الله، ولكن لأنه لا يصدق أبدا أنه متهم، أو أن الله يغضبه حقا أن يلهو لهوا لا يصيب أحدا بأذى.....**"[١٣]

وجدنا أن حياة أحمد عبدالجواد جمعت شتى المتناقضات التي تراوحت بين العبادة والفساد، وحازت رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطنع الناس من ألوان الرياء، ولكنه كان يعبر عن طبيعته الخاصة بقلبه الطيب، وعلى كل حال، كان أبرز ما يتميز به إيمانه الخصب النقي، وبهذا الإيمان الخصب النقي كان يؤدى فرائض الله جميعا، من صلاة وصيام وزكاة في حب وسرور. أكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة؟ بلى، هو كان رب الأسرة الكبيرة، يعرف الصحيح و الخطأ، وربما هو أراد أن يتعامل مع أهله بشكل لطيف لكنه في تلك الفترة كان متأثرا بمن حوله، لذلك من الضروري أن يظهر رجولته، فكان يقول لزوجته أمينة حينما عاتبته على كثرة سهره خارج البيت: "أنا رجل، الآمر الناهي، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة، وما عليك إلا الطاعة، فحذاري أن تدفعيني إلى تأديبك". في الوقت نفسه، كان يعلم أيضا أنه لا ينبغي أن يرافق أصدقاءه كل ليلة في شراب الخمر والسهر مع المومسات والعود، لكن لا يستطيع السيطرة على شهوته لذلك يستغفر الله ، ويتعبد إليه بالصلاة والصيام والزكاة لتخفيف الشعور الداخلي بالذنب عن هذا السلوك.:" **فينهل منها جميعا في فرح وبهجة وولع، غير مثقل**

الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقا منحته إياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته" في الواقع إن شخصية أحمد تشبه شخصية الكثير منا في حياة الواقع؛ إذ ندرك أن سلوكياتنا خاطئة لكننا نكررها باستمرار ثم نتوب إلى الله على الأخطاء التي ارتكبناها، بعد ذلك عندما نشعر بتخفيف أعباء ذنوبنا ثم نعود لتكرار ما فعلناه في الماضي.

لكن في رواية قصر الشوق والسكرية، مع تقدم السيد أحمد عبد الجواد في السن أصبح أكثر لطفا يوما بعد يوم، واستخدم محفوظ عددًا كبيرًا من الأوصاف النفسية ليدخل القارئ إلى قلب السيد أحمد، خاصة في تعامل السيد أحمد مع زنوبة؛ إذ قدم بصدق خوفه وحزنه من مرور الزمن، وفي هذا الوقت، هو لم يعد الأب المستبد الشهواني كما كان الحال في رواية بين القصرين، بل أصبح رجلا عجوزا حائرا وبائسا، وفي رواية السكرية، عرف السيد أحمد تغييرا كبيرا في حياته وأصبح مع مرور الوقت لا يغادر حجرته من شدة مرضه بعدما كان رجل اللهو والمرح والسهر، لقد كان اعتكاف السيد أحمد أول الأمر محزنا، ثم صار عادة عنده وعند الآخرين، وظل الطبيب يزوره يوميا وكانت حالته شديدة السوء بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، ولم يعد يشغله شيء إلا حب أولاده وأحفاده، ومع ضعف جسده، أصبحت حياته أكثر اندماجا في عائلته "**لما ذهب الأصدقاء اتخذ الرجل من كمال صديقا، ولعله فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهده، وغدا صديقا يناجيه ويتشوق إلى مناجاته.**"[١٤]، فقد كان يرغب في الحصول على الدفء الأسري من أهله للتخفيف عن ألمه الداخلي وأخطائه الماضية للحصول على الهدوء وقد صارح ابنه كمال بقوله:" **عجزي عن الصلاة يحز في نفسي حزا، فالعبادة عزاء الوحدة، ومع ذلك تمر بي أوقات غريبة أنسى فيها كافة وجوه الحرمان التي أعانيها من مأكل ومشرب وحرية وعافية، تصفو نفسي صفاء عجيبا حتى يخيل إلى أني متصل بالسماوات، وأن ثمة سعادة مجهولة تزرى بالحياة وما فيها.....**"[١٥]

وعندما نراجع مسيرة حياة السيد أحمد نجد أنها تبدأ باستعراض شهواته وملذاته، وتنتهي بحبه للعائلة؛ ففي رواية بين القصرين، يتمتع شهوته بحرية وينغمس فيها، لكنه يتعامل مع أهله على أنه طاغية وقلبه مملوء بالقلق والضيق والغضب، لكننا نجده في رواية السكرية، وقد تناقصت رغبته في

الحياة شيئًا فشيئًا، ويحرم تدريجياً من شهوته وشهيته، وازداد قلبه هدوءًا، وفي خضم الوحدة التي لا تطاق عبَّر عن حبه لعائلته.

الجزء الثاني: الجيل الثاني للشخصية المتنوعة

إذا جاز لنا أن نقول إن الجيل الأول يمثل القوة التقليدية والمحافظة، فمع مرور الأيام، اختلف عنه الجيل الثاني بشكل كبير، وفيما يلي توضيح ذلك:

ياسين: هو أكبر الأبناء الذين أنجبهم السيد عبد الجواد من زوجته السابقة هنية، وكان شبيها له في أناقته ووسامته وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقرية هائلة إلا أن مظهره لم يتعارض بحكم الزمن مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلئ بعينيه السوداويتين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وإنما رغم حداثة سنه الذي لا يجاوز الواحد والعشرين فله رجولة مفعمة بالفحولة.

ورغم أن الكاتب وصفه بأنه وسيم جدا، إلا أنه لم يفلت من المصيبة فعندما كان صغيرا فقد والدته، ثم أصبح رجلا خجولا جدا ينفذ كلام الآخرين دون أن يكون له رأي مستقل، يشعر بالقلق من المستقبل ويكره المجتمع والنساء في تلك الفترة بسبب الفاصل بين أمه وأبيه، وقد كان لدى ياسين رغبة في قراءة الكتب خاصة قصة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب، ودائما ما يحكى عن الكتاب الذي يقرأه لإخوانه، لكن أبوه يكسر حلمه بقوله "قررت أن أزوجك لهذه الفتاة"، مما يغير طريقة حياته.

وقد كان السيد أحمد قد أورث ياسين طبيعته المتمثلة في ميوله للنساء وعشقه لأجسادهن وولعه بمغازلته، لكن شهوته مختلفة عن أبيه؛ إذ كان أحمد دائمًا يضع الصداقة والكرامة في المرتبة الأولى ويسعى إلى "المتعة الأنيقة" في الحب، لكن ياسين كان ثورا شهوانيا فقط، وهوايته هي اشتهاء جسم الأنثى وتحسس جمالها، ويصفه السارد في رواية بين القصرين بقوله:" **لما غادر ياسين البيت كان يدري بطبيعة الحال وجهته التي يقصد مساء بعد مساء، ولكنه بدا كعادته إذا مشى في الطريق وكأنه لا وجهة له. كان شأنه إذا سار أن يسير متمهلا في هوادة ورفق**.....[١٦]. وما هي عادته؟ وإلى أين يذهب؟ عندما يقرأ القارئ هذه الفقرة سيظن أنه ذاهب إلى العمل، لكن مع القراءة المتواصلة سيكتشف أنه سيذهب إلى المقهى لهدف آخر، يقول الكاتب: "**يظل في قلقه كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده**.....

كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله، فلم تدع له وقتا يستريح فيه من استفزازها، وشعر دائما بألسنتها تلهب حواسه ووجدانه.....

ما أن ابتعد عن أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه إلى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال، اذ كان العفريت الذي يركبه مولعا بالنساء كافة، متواضعا يستوي عنده الرفيع والوضيع منهن، فبائعات الدوم والبرتقال على سبيل المثال وإن شابهن الأرض التي يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن، كثديين ناهدين أو عينين مكحولتين.....[١٧]

ألم يئن الأوان يا بنت المركوب؟ ذبت يا مسلمين، ذبت كالصابون ولم يبق منها إلا رغوة، هي تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدللي.. تدللي يا بنت المركوب، ألم نتفق على هذا الميعاد؟ ولكن لك حق.. فردة ثدي من صدرك تكفي لخراب مالطة.. وفردة تالية تطير مخ هند برج، عندك كنز.....

إذ رب ضريرة ريا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين، يا بنت العالمة وجارة التربيعة.....

إذ تأدى به مزاجه إلى التهالك على جسيم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم إلى تركيز العناية في أجزاء من الجسم متجاهلا جملته، كأنه في هذا كله ينعش أماله ويجددها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية في دنياه– عند الفرصة المحتملة المدخرة ليوم أو لغد، إلى ما يسنح له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيب في أحوال نادرة.....[١٨]

خلال هذه الفقرات الرائعة وجدنا أن ياسين تتملكه الشهوة فقط ويشتهي الفتيات سواء كانت جميلة، أو قبيحة، أو بيضاء، أو سوداء، طالما أن جزءا معينا من الجسم يبدو جميلا فهذا يجعله مسرورا لدرجة وصلت به إلى التحرش بالخادمة، فضلا عن أنه تزوج عدة مرات، وفي كل مرة أراد أن يعيش حياة مستقرة مع زوجته خاصة بعد زواجه من زنوبة عشيقة أبيه، ورغم عدم انتهاء شهر العسل إلا أنه بدأ يشعر بالملل من حياته: "**مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره إلا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلا، وفيما**

عدا هذا لم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن أنه ينفذ الخطوات الأولى في برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام. ولكنه أدرك في الثلث الأخير من الشهر أن تفاؤله لابد أن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لا يدري كنهه قد طرأ على حياته. كان يعاني في حيرة بالغة ولأول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويحوزها تحت سقف بيته، فأي فتور يتبخر من تلك «الملكية» الآمنة المطمئنة. الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشكولاتة المزيفة التي تهدى في أول إبريل بقشرة من الحلو وحشو من الثوم. وأى مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت في صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى! وراح الفتى يتساءل عما هد ثورته، عما هدى شياطينه»، عن ذاك الشبع وأين جاء، عن تلك الفتنة أين ذهبت، أين ياسين وأين زينب، أين الأحلام، أهذا شان الزواج أم شانه هو، وكيف إذا تتابعت الشهور في أعقاب الشهور! ليس أنه لم يعد له رغبة فيها، ولكنها لم تعد رغبة الصائم في لذيذ المأكل، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن أن النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدري إلا وساقها تطرح على ساقه كانما طرحت عفوا حتى قال لنفسه «يا عجبا.. أحلامي عن الزواج أحلامي عن الزواج تحققت عندها هي!» إلى هذا كله وجد في عنفها نوعا من الاحتشام وإن طاب له أول الأمر أنه جعله يهيم آخرا في وديان الذكريات التي ظن أنه ودعها إلى الأبد، طغت على رأسه من الأعماق زنوبة وأخريات كما تطفو ودائع البحر هند هدوء العاصفة لا لشر يبيت فالحق أنه مرق إلى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل، وليقتنع أخيرا أن العروس ليست المفتاح السحري لدنيا المرأة، ليس يدري كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب –على الأقل من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بانه سيستغنى بأحضان

زوجه عن العالم الخارجي، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله، ذلك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها....[١٩]

وجدنا أن ياسين ليس لديه طموحات أو وأهداف في الحياة ولا تحكمه أخلاق أو إيمان أو شيء من الالتزام الديني أو حتى الشعور بالذنب، ومتعته في الحياة تتلخص في لهوه مع النساء، إنه يشبه "الثور" الذي ينفس عن شهوته بلا ضمير.

فهمي: نشأ ياسين وفهمي في ظل تآكل الثقافة الاستعمارية، لكن ياسين تشبع بروح الرجعية والفساد، أما فهمي فتشبعت روحه بالعلم، فهو ابن السيد أحمد عبد الجواد وأخو ياسين وكمال، ويتميز عن إخوته بحب قراءة الكتب، كما درس في الجامعة وتخرج في كلية الحقوق، كما تلقى تعليمًا إسلاميًا تقليديًا وتأثر بالثقافة الغربية أيضا. لم يشارك مشاركة إيجابية في النضال الوطني فقط، بل في العمل به أيضا فشارك بحماسة شديدة في الحركة الطلابية، ووزع المنشورات ،ونظم مسيرات الاحتجاج، وكرس نفسه للهدف الأسمى المتمثل في إنقاذ الوطن، وذات مرة سألته أمه:" **لماذا تكرههم يا بني! أليسو أناسا مثلنا لهم أبناء وأمهات؟ فيقول لها بحدة:" ولكنهم يحتلون بلادنا! وتحس بحدة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة إشفاق لو نطقت لقالت له لا عليك من هذا.. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها: لا حياة لقوم إذا حكمهم أجنبي فقالت له في استغراب، ولكنا لا نزال أحياء رغم أنهم يحكموننا من زمن بعيد، وقد أنجبتكم جميعا في ظل حكمهم! إنهم يا بني لا يقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال أمة محمد بخير! فقال الشاب يائسا:" لو كان سيدنا محمد حيا ما رضى أن يحكمه الإنجليز!**[٢٠]

تحلى فهمي بالوعي القومي الشديد وحب الوطن الأم، فهو ممثل للشباب التقدمي في مصر في ذلك الوقت، وفتح طريقًا جديدًا للشباب المصري هو طريق الثورة، وضحى بحياته الغالية من أجل ذلك، لكن فهمي شخصية معقدة أيضا؛ فكان متدينًا جدًا منذ أن كان طفلاً بسبب تأثير والدته، لكن التعليم الحديث وحركة الإصلاح البرجوازية جعلته يتقبل أفكار الإصلاح التي نادى بها محمد عبده وآخرون، ورغم أن شخصيته لطيفة، ولكنه كان يتحلى بروح التمرد وعندما حاول والده منعه من المشاركة في الحركة الطلابية عصى أوامر والده بشجاعة. وعندما اشترك في إحدى المظاهرات أصابته الحماسة ؛ لكن صوت الرصاص قد غطى على أصوات الهاتفين فسقط أول القتلى، وواصل

بعض الناس تقدمهم، وتفرق البعض الآخر ، ولاذوا بالبيوت والمقاهي، وكان فهمي من ضمن هؤلاء إذ اندس وراء الباب متناسيا كل شيء إلا حياته، وعندما عاد إلى بيته أصابه الذهول، وتمنى لو كان من الذاهبين أو في الأقل من الثابتين، ووجدنا أنه كثوري لديه الكثير من نقاط الضعف. لكن من خلاله يمكننا أن نرى صحوة بعض الشباب المثقف المصري في النضال الوطني.

يبدو أن فهمي ثوري ومطيع لتقاليد والده، وخاضع لإرادته، وعندما يقف أمام أبيه، تختفي العديد من فضائله، ولا يتبقى سوى الطاعة العمياء، وعندما أخبر فهمي والدته برغبته في خطبة ابنة الجيران مريم التي تكبره بعامين، رفض أبوه الفكرة رفضا قاطعا، وانصاع فهمي لرغبة أبيه، وبسبب هذا الأمر، تحطم حلم فهمي الجميل ورُفض حبه، لكن هذا الحدث أصبح القوة الدافعة له للمشاركة الفعالة في الحركة الوطنية. وقال:"**سيان أن أحيا أو أن أموت، الإيمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الذل، فهنيئا لنا الأمل الذي هانت إلى جانبه الحياة، أهلا بصباح جديد من الحرية، وليقضى الله بما هو قاض**".[21]

كمال عبد الجواد: يعد من أغنى الشخصيات التي رسمها نجيب محفوظ في ثلاثيته، إذ تشتمل شخصيته على مجموعة من المتناقضات ويقف دائما بين الحيرة والتردد، عندما كان في العاشرة من عمره تلميذا في مدرسة خليل آغا الابتدائية كان متحررا من قيود الزمن والمكان، وهو على شقاوته وسذاجته فيما يتعلق ببعض الأمور كان متفوقا في الدراسة وكان متعلقا بأمه تعلقا كبيرا، فكانت سلوكياته تستقطب إعجاب أفراد أسرته أحيانا وتثير سخطهم أحيانا.

كان شغوفا بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله في الدروس الجافة، بالإضافة إلى ذلك كان مولعا بالدين، ويتمتع مع أمه بالمعلومات التي درسها في المدرسة، فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال وكان يسألها:" هل يمكننا أن نرى الله بأعيننا في اليوم الآخر؟" " هل أبي يخاف الله ؟، وبعد حادثة أمه في الطريق إلى مسجد الحسين تساءل:"كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين؟".

مع مرور الأيام، بلغ كمال السابعة عشرة من عمره، وأصبح لديه حبا قويا للابنة الغنية عايدة، حتى أنه أعلن أن هذا الحب هو الأول في حياته، ووصف الراوي في محفوظ خمس صفحات الأنشطة الداخلية لحب كمال لعايدة، وأثناء وقوعه في الحب أظهر الطاعة لأبيه وإخلاصه للدين

ودعمه لحزب الوفد، كان حبه لعايدة نموذجا للحب الأعمى؛ لأن طريقة عايدة وآراءها لا تناسبه ولا تحترم دينه، كما أن عايدة ليست جميلة في نظر الآخرين، لكن كمال كان يغض الطرف عن آراء الآخرين، ويتحمل عن طيب خاطر المعاناة التي يجلبها الحب، وذات يوم خرج معها ومع أخيها إلى أهرامات الجيزة، وقابلها على انفراد في الحديقة ذات يوم، فرآهما «حسن سليم» سراً وأخبر «كمال» على انفراد بأن «عايدة» تُحبّه (أي: تُحبّ «حسن»)، وأخبره بتعالٍ أن عليه الابتعاد عنها.

أبى «كمال» أن يَصدِّقه، لكن «عايدة» اختفت تماما من حياته وتوقَّفت عن مقابلته لثلاثة شهور، وتبعها ذات يومٍ خلسةً بعد خروجها من بيتها ليواجهها بهذا الأمر ، ويعترف لها بحبّه، فتبيَّن أنها كانت غاضبةً منه لأن «حسن» قد أوقع بينه وبينها بالكذب والتحايل، ثم أُعلن عن عقد قرانها على «حسن» بعد ذلك بأيام، ثم تزوجا وانتقلا للحياة في بروكسل، وانتقل «حسين» إلى باريس بعد سفرهما بأسابيع، وبقي «كمال» وحيداً وحزيناً.

إن مأساة الحب لم تجعله يعاني الواقع الاجتماعي القاسي فحسب، بل إنها زعزعت أيضا قيمه التقليدية بعد أن تعرف على تقاليد الأسرة الثقافية الغربية من خلال عايدة، ووجد أسرتها مختلفة عن أسرته التقليدية، ووجد الحياة الحرة التي كان يحلم بها منذ سنوات في أسرة عايدة، ومن أجل التخلص من هذا الألم، قام بالأفعال المحرمة، ودخل عالم الشرب والخمر برفقة صديقه إسماعيل ، وتردَّد على بيوت الدعارة في القاهرة ،وتعرف على ساقطة اسمها «وردة»، والتقى بها هناك ذات يوم بياسين، فاكتشف ياسين مجون أخيه، وعرف كمال للمرة الأولى أن أخاه ياسين وأباه أحمد عبد الجواد كانا موغلان في هذه الحياة منذ سنين، واختفي الإيمان الوحيد الذي كان لديه في العالم.

"أبوك شيخ ماجن! هل ثمة حقيقي وغير حقيقي؟! ما علاقة الواقع بما في رؤوسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين عايدة المعبودة الحبلى؟ أنا نفسي ما أنا؟ لماذا تأملت ذلك الألم الوحشي الذي لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتى تنفق...."[٢٢] في هذا الوقت، كان إيمانه انهيارا كاملا، ليس لديه شيء إلا الألم، كم يتمنى أن يتخلص من الماضي كما قال:" **بل هبني وطنا بلا تاريخ وحياة بلا ماض**".[٢٣]

عانى كمال سلسلة من الضربات، وفي الوقت نفسه عانى من صدمة أخرى بعد فقدان الإيمان السياسي ، فكان في الماضي يدعم حزب الوفد ؛ لكن بعد توصل الحزب إلى اتفاق سلام مع

الخائن، وتحولت حركة الاستقلال الوطني إلى صراع حزبي أفقده ذلك الإيمان في معتقداته السياسية.

بالإضافة إلى ذلك، بعد تخرجه في المدرسة الثانوية اختار كلية المعلمين ثم اشتغل في المدرسة الابتدائية لكنه عانى التمييز من الآخرين خاصة بعد أن كتب مقالا من قلبه سخر منه الأصدقاء، وتحطم حلمه الواحد تلو الآخر، إلى جانب التخلف الاجتماعي والفساد السياسي، كل هذا جعله يشعر بخيبة أمل شديدة من الواقع، وانغمس في ذكريات الماضي، لكن التناقض القوي الناتج عن ذاكرة الماضي كان مؤلمًا أكثر فأكثر ولم يستطع تخليص نفسه من ذلك.

ويمكننا القول : إن كمال كان لديه طموحات لكن كان ينقصه تحقيق تلك الطموحات، فلم يجرؤ على متابعة أحلامه، لأنه يفتقر إلى الشجاعة فتوقف عن مواصلة التفكير ، فابتعد عن الواقع، وزاد شكه فيما يسعى إليه حتى عندما أحب بدور الشقيقة الصغرى لعايدة ، لم يجرؤ على اتخاذ خطوة نحو الزواج، وكان دائمًا في ورطة "الزواج أو عدم الزواج".

واستطاع نجيب محفوظ رسم شخصية كمال بشكل غير مسبوق في الرواية العربية إذ لم تكن هناك شخصية قبل ذلك بهذا العالم الداخلي المعقد والعميق والتي تم عرضها بجرأة وحيوية أمام القراء، فظهور شخصية كمال يعلن مولد البطل المأساوي بشكل حقيقي في مجال الأدب والفن. وبالمثل، فإن صورة كمال شائعة جدًا في مصر الحديثة، قال محفوظ:"

في الثلاثية كما قلت جزء كبير من نفسي، يتمثل في شخصية كمال عبد الجواد، وكمال لم يدخل إلى الثلاثية اعتباطا، وليس لأنه جزء مني، ولكنه ظهر بهذه الصورة لأنه جزء لا يتجزأ من موضوع الرواية. الرواية قادمة من عصر كلاسيكي، ومتوغلة في عصر رومانتيكي ومتجهة إلى عصر تحليلي، وفيها تلاقي الشرق بالغرب، ولكن ليس من خلال رحلة كتلك التي قام بها توفيق الحكيم، أو يحيى حقي، أو الطيب صالح، إنها تمثل الذي وجد الغرب وهو في الشرق، جاءت إليه مظاهر الحضارة فكان لابد من شرح هذه التغيرات في النفس وفي الروح وفي العقل، ولما كنت قد عانيت بسبب ذلك تجربة ضخمة، فكان من الضروري أن تنعكس في الرواية، وجدت أن أفضل من يمثلها جيل الوسط، بالطبع كان من المستحيل أن تجدها عند ياسين، كان من الممكن أن يمثلها فهمي، ولكن فهمي مات، إن أزمة كمال هي أزمتي، وجانب كبير من معاناته هي معاناتي، من هنا يجيء حبي للثلاثية، وحنيني إليها."[٢٤]

الجزء الثالث: يقظة الجيل الثالث :

أحمد ممثل الجيل الثالث: على العكس تماما من كمال، لا يشعر بالقلق فقد تخلص من القيود التي حالت دون تقدم الجيل الثاني، وكان لديه هدف واضح ووتيرة ثابتة في الطريق الذي يسعى إليه نحو التحرر الفردي، وأظهر ذلك المزاج الفريد للجيل الجديد الذي لديه هدف واضح ضد الإمبريالية والإقطاع، ويرفض الإيمان بالخرافات الدينية ويؤمن بالعلم، حتى تدور بين أصدقائه المناقشات النظرية ويدرسون الماركسية، ويخططون للقضاء على الدين ثم يعتنق الفكر الشيوعي، ورغم أنه ولد في أسرة برجوازية وسطى، إلا إنه أنه يتعاطف مع الطبقة الدنيا، ويكره فساد الأسرة الغنية، ويطمح للمساواة بين جميع الطبقات.

وأثناء دراسته في كلية الآداب، يبدأ بنشر مقالات في مجلة "الإنسان الجديد"، وهي مجلة اشتراكية بامتياز، وتعرف على علوية صبري الطالبة بنفس كليته، ثم ما لبث أن فاتحها برغبته في الزواج منها، وبعد مماطلة من طرفها، وإلحاح من طرفه، صدمته بتصريحها أنها ترغب في الزواج من رجل غني يضمن لها الحفاظ على مستواها المعيشي، وبذلك تُطوى صفحة "علوية صبري" من حياته.

وبعد تخرجه قرر أحمد العمل في الصحافة رغما من معارضة والديه، ويعده رئيس تحرير مجلة "الإنسان الجديد" بتعيينه مترجما أولا على سبيل التدريب ثم محررا، وتعد تجربة عمله في مجلة الإنسان الجديد نقطة التحول في طريق حياته، والخطوة الأولى من الأحلام إلى الواقع، وفي عمله الجديد تعرف على "سوسن حمّاد"، المحررة في المجلة، ورغم جمالها المحدود وجديتها المفرطة وإغراقها في السياسة، ورغم كونها أدنى منه اجتماعيا بالإضافة إلى أنها تكبره بسنوات؛ فإنها تنجح في الفوز بحبه ويتزوجا رغم معارضة أهله.

وتحت تأثير رئيس التحرير عادل الكريم مع زوجته سوسن حماد بدأ بتوزيع المنشورات والخطب وترجمة الكتابات الماركسية، وتعليم العمال لرفع وعيهم. وانتهى الأمر باعتقال أحمد مع أخيه عبد المنعم سواء بسواء، وبعد الاعتقال ظل متمسكا بمعتقداته، وإذا جاز لنا أن نقول إن كمال يمثل الواقع الذي يمر به محفوظ، فيمكننا أن نقول إن أحمد يمثل أمل وحلم الكاتب؛ إنه المستقبل والهدف الذي يتطلع إليه بعد استكشاف حياته.

عبد المنعم: هو الابن الأكبر لخديجة ابنة السيد أحمد عبد الجواد، وهو الشقيق الأكبر لأحمد، لديه نقطة مشتركة مع أخيه أحمد وهي الإيمان بنفسيهما. لكنهما ذهبا في طرق مختلف؛ فبعد حصول

عبد المنعم على شهادة البكالوريا من القسم الأدبي دخل كلية الحقوق. ومنذ بداية رواية السكرية، نرى أن عبد المنعم اختار لنفسه طريق الإيمان الصادق، فهو ملتزم بالصلاة، وحريص على قراءة الكتب الدينية، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين وأطلق لحيته، ويعتقد أن الدين إيمان وقانون وسياسة، فاهتم بنهضة دين الإسلام ، ودعا المجتمع إلى عودة حكم الدولة بأصول الشريعة، وأصبح منزله المكان الذي يجتمع فيه أعضاء جماعة الإخوان المسلمين أيضا، وبذل كل ما يملكه في سبيل خدمة أفكاره ومعتقداته الثابتة ، وأخيرا داهمت الشرطة بيته واعتقلته رغم كل توسلات خديجة للمأمور بترك ابنها وشأنه، وعندما سجن في زنزانة رطبة تساءل بحرقة: هل كل ذنبي أنني أعبد الله؟!

صورة النساء في الثلاثية:

في الثلاثية، وصف الكاتب أنواعا عديدة من النساء من طبقات اجتماعية مختلفة، ويمكننا أن نقسمها حسب المرتبة الاجتماعية إلى الطبقة المتوسطة والطبقة الأرستقراطية والطبقة الشعبية، وتميزت المرأة في كل طبقة بسمات تميزها عن غيرها، وقد نجح نجيب محفوظ في رسم صورة المرأة في كل طبقة من كافة الجوانب، وتعد صورة المرأة مرآة تعكس قيم وثقافة المجتمع الذي تنتمي إليه، كما تعكس نظرة الكاتب، وقد اهتم نجيب محفوظ بقضية النساء وحرص على تصوير المرأة في أعماله وقال عن ذلك: الحقيقة إن المرأة في حياتي وأدبي شيء واحد. لعبت المرأة في حياتي دوراً كبيراً، وقد تطرق الكاتب في الثلاثية بين : بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية إلى كثير من النساء للتعبير عن رؤيته تجاه الشخصية النسائية المصرية، وسيتضح ذلك فيما يأتي:

أمينة المرأة التقليدية:

في بداية رواية بين القصرين وجدنا أن النساء في أسرة السيد أحمد كلهن نساء تقليديات؛ فأمينة هي الزوجة الثانية لأحمد عبد الجواد سيدة مسكينة خائفة ضيقة العقل محدودة الثقافة مستسلمة بعد زواجها عاشت الحياة كما عاشت معظم النساء في ذلك العصر في ذلك المجتمع، فلم تدرس في المدرسة، ولا يمكن أن تخرج من المنزل، وكانت قد ولدت في أسرة تهتم بالدين بكل معنى الكلمة، أبوها وجدها كلاهما شيخان، وأبوها أستاذ بارز في الإسلام وقد حفظ القرآن الكريم، وأمها مسلمة مؤمنة تقوم إلى الصلاة كل يوم مع أن عمرها تجاوز الخامسة والسبعين، لم تدرس أمينة في المدرسة منذ طفولتها.

فأمينة جميلة ومتواضعة وبسيطة، وقد وصفها محفوظ في رواية بين القصرين:" **كانت في الأربعين متوسط القامة، تبدو نحيفة، ولكن جسمها بض ممتلئ في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب. أما وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجنين دقيق القسمات، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيها نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى.**[٢٥] فعندما وجدت أن الجن طائف عليهم قالت في نبرات لا تخلو من دالة:" لا تحترم عباد الرحمن! الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما!، تعامل الآخرين بتواضع وحب وكل الناس في عينها، "ملائكية"، تعامل الخادمة أم حنفي كباقي أفراد أسرتها، وكانت لا تسمح لابنتها خديجة أن تسخر منها، كانت مجتهدة في الأعمال المنزلية، وتؤدي كل واجبات البيت بنفسها سواء أكان العمل بسيطا أم صعبا من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها، وفي منتصف الليل، تنتظر زوجها بعد سهر في الخارج، كما ورد في بداية بين القصرين **"عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره، ولكن بإيحاء الرغبة التي تبيت عليها فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة "**[٢٦]. **"هي العادة التي توقظها في هذه الساعة، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية، أن تستيقظ في المنتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودة من سهرتها فتقوم على خدمته حتى ينام "**[٢٧] .

هي أم تعامل أبناءها بحب وحنان، وتهتم بتربية أبنائها، ومن عادتها أن تجمع أولادها قبيل الغروب وتتجاذب معهم أطراف الحديث أثناء شرب القهوة، وهذا يعرف بمجلس القهوة. وفي هذا الجو الجميل ينعم أفراد الأسرة بسعادة كبيرة، وفي الوقت نفسه، يلعب هذا دورا كبيرا في معرفة كل فرد في الأسرة بما يدور خارج البيت ويسهم في تبادل الآراء والأفكار، فلا تملك أمينة وسيلة لتعرف من خلالها ما يجري العالم إلا "مجلس القهوة"، ربما تلك ساعة محببة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائلية، وينعمون بلذة السمر وينضون جميعهم تحت جناح الأمومة في حب صاف.

هي زوجة، خدمت زوجها بإخلاص تزوجته وهي في الرابعة عشرة من عمرها وقد مضت ٢٥ سنة، كانت تخدم زوجها بجذر بالغ وعناية متناهية، ففي منتصف الليل، لا بد أن تستيقظ من

النوم لاستقبال زوجها الذي عاد من سهرته، وتفعل له الكثير مثل: إنارة الطريق له بالمصباح وخلع الملابس والحذاء وأيضًا إعداد الماء لغسل وجهه، ثم تجلس أمامه لمصاحبته في الحديث وتقدير أحوال أبنائهم له حتى إرضائه.

في الفجر، لا بد أن تقوم من النوم مبكرا، لإعداد الفطور ومساعدة زوجها في اللبس، فزوجها مركز حياتها، فهي تابعة لزوجها، يمكنها أن تعيش دون فرح، ولكن لا بد لزوجها أن يتمتع بالسعادة والرضا، ربع قرن من الزمن مضى وهي حبيسة في هذا البيت لا تفارقه إلا مرات متباعدة لزيارة أمها عند كل زيارة يصطحبها السيد في حنطور لأنه كان لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته.

في رأيها، تقوم بالتضحية بنفسها من أجل سعادة زوجها، وتصبر على كل الصعاب التي تواجهها في حياتها معه، بعد زيارتها لمسجد الحسين، غضب منها زوجها وطردها من البيت إلى بيت أمها، ولكنها صبرت، واعترفت بأنها أخطأت في ذلك، يتضح ذلك في حديثها مع أمها.

"أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وانا لا أدري؟ عند ذاك همت بانفاس مضطربة أعوذ بالله يا سيدي، أنا خطئي كبير حقا، ولكني لا أستحق هذا القول.

ولكن الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذي يهون إلى جانب الزعيق قائلا:

– كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير! ا لاني ابتعدت عن البلد يوما واحدا؟!

أمام أسئلة زوجها بلهجة شديدة، أصبحت أمينة خائفة كثيرة فقالت بصوت متهدج وشدت نبراته بالرجفة التي ملكت جسمها:

أخطأت يا سيدي، وعندك العفو، كانت نفسي تتوق إلى زيارة سيدنا الحسين، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرة واحدة.

فهز رأسه في شيء من الحدة كانما يقول "لا فائدة ترجي من الجدال "ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة:

ليس عندي إلا كلمة واحدة! غادري بيتي بلا توان..... "[٢٨].

من هذا الحديث، وجدنا أن السيد أحمد عبد الجواد رجل أناني، لا يعطي لأمينة حريتها، وبنيت العلاقة بينهما على عدم المساواة كما قال انجلز: "الزوجة تحط من قيمتها بالزوج، وتسترق، ثم تصير عبدة الزوج وآلة النسل." ولكن أمينة المسكينة كانت تعتقد أن زوجها على حق دائما، فهو عماد الأسرة، وما فعلته لزوجها هو واجبها الذي يجب أن تقوم به، في بداية قصر الشوق، بعد سهرة أحمد من الخارج ورجوعه إلى البيت، وجدنا أنه "جلس على الكنبة مرة أخرا ومد ساقيه للمرأة التي راحت تخلع الحذاء وغابت عن الحجرة قليلا، عادت بالطشت والإبريق وجعلت تصب له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض، وأخيرا ترفع في جلسته مستعرضا نسمة الهواء التي تهفو في لطف ما بين المشربية والنافذة المطلة على الفناء.

يا له من صيف فظيع صيف هذا العام!

بالإضافة إلى ذلك، عندما اعترضت في بداية حياتهما على سهره المتواصل "**فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهوري في لهجة حازمة: أنا رجل، الآمر الناهي، لا أقبل على سلوكي اية ملاحظة، ما عليك إلا الطاعة، فحذاري أن تدفعيني إلى تأديبك، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما الحق به أنها تطيق كل شيء حتى معاشرة العفاريت الا أن يحمر لها عين الغضب، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد اطلعت، وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرها، ووقر في نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة الجوهر واحد**....."[٢٩]. ما السبب؟ هو أن السلطة الأبوية والزوجية تحكم العائلة والزواج، وفي ثلاثية نجيب محفوظ، كان أحمد عبد الجواد رجل يجمع بين السلطة الأبوية والسلطة الزوجية، ورأينا أن أمينة ممثلة النساء تحت السلطة الأبوية والسلطة الزوجية، وهن تقليديات الفكر والثقافة، وليس عندهن شيء من الوعي لمقاومة هذا النظام القائم على غير المساواة، وأمينة ممثلة هذا النوع من النساء الخاضعات للنظام الأبوي والمستسلمات للمعاملة غير المتساوية ويصبرن بدون شروط أومقاومة.

النساء والصحوة:

يتطور المجتمع بدون توقف، ويتطور وعى النساء مع تطور المجتمع، لذلك بدأت النساء المصريات يكتسبن حقوقهن مع تطور العصر، وإذا قلنا إن أمينة هي ممثلة للنساء الخاضعات لسلطة الزوج

والمجتمع الإقطاعي، فإن خديجة وعائشة وزينب هن ممثلات الجيل الثاني من النساء اللواتي يتمتعن بنوع من الصحوة والفكر الجديد، لكنهن من النساء التقليديات أيضا مثل أمهاتهن، فكانوا محبوسات في البيوت وليست عندهن حق الخروج من البيت، ولم يدرسن في المدرسة، وكانت حالتهن مثل الأمهات ولم يتجرأن على مقاومة الظلم الأبوي.

مثل **عائشة** الابنة الثانية لأحمد وكانت في السادسة عشر من ربيعها، كانت جميلة ورشيقة القد والقوام، **وجه بدر تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبي.** وكانت ترغب في الحب قبل الزواج مع أنها امرأة تقليدية لكنها كانت تريد أن تعيش الحب وتجرب المغامرة في ذلك، فكانت تطل من المشربية المطلة على بين القصرين وتمد بصرها من ثقوب الشباك في اهتمام ولهفة. بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتيها أنها تنتظر"**ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط شاب ومضى مقبلا متمهلا في طريقه إلى قسم الجمالية، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية في عجلة إلى حجرة الاستقبال، واتجهت إلى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا. لما اقترب الضابط من البيت رفع عينيها في حذر دون أن يرفع رأسه ولم يكن أحد يرفع رأسه في مصر.**"[٣٠]

وذكرت– كما يلذ لها أن تذكر دائما– كيف كانت تنفض الستارة المنسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة إلى الطريق من النافذة التي فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع إلى وجهها في دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجعت فيما يشبه الذعر....[٣١]

وهكذا يوما بعد يوم، وشهرا بعد شهر، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة جنونية وفتحت النافذة ووقفت وراءها وقلبها بعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا كأنها تعلن حبها له، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليتقي نارا مستعرة تحيط به.[٣٢]..... **ونهضت قائمة، ولكي توهم نفسها بخلو البال ترنمت وهي تغادر الحجرة بصوت عذب:" يا أبو الشريط الأحمر يا للي أسرتني ارحم ذلي"**[٣٣]

لكنها استيقظت من هذا الحلم الجميل وواجهت الواقع الحقيقي والقاسي بعد أن رفض والدها زواجها من الضابط بحجة سخيفة. وقال أحمد عبد الجواد: "**أنه ضابط الحي، يسير في**

شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علموا بزواجه منه، لا أحب ولا أريد أن أعطي أبنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي. [٣٤]"

وبعد قرار الأب، تعرضت عائشة لصدمة شديدة. "**ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التي تندفع مبسوطة الجناحين كانما تنتفض حيوية ونشاطا –على حين يندفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة.**"**٣٥** فإرادة الأب لا معقب لها، وما عليها إلا الإذعان والاستسلام، بل عليها الرضا والقبول بالأمر الواقع، لأن محض الوجوم ذنب لا يغتفر، فكل شيء في هذا البيت يخضع خضوعا أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينية أشبه حتى الحب نفسه بين جدرانه يسترق خطاه إلى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد، إذ لا استبداد هنا إلا تلك الإرادة العليا، ولذلك "فعندما قال الأب (لا) استقر قوله في أعماق نفسها وآمنت الفتاة إيمانا راسخا أن كل شيء قد انتهى حقا، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع، كان (لا) **هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار، غير مجد أي اعتراض عليها، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها** .....[٣٦]

كانت عائشة ترغب في الحب وتصرفاتها تدل على أن طلب حرية الحب ليس سهلا في العصر ذلك، بالنسبة إلى الشباب فإن المطالبة بالحب من حقهم. لكن عندما يواجه مطلبهم استبداد الأب الإقطاعي، لا يكون أمامهم سوى القبول والضوع لرغبته.

بعد الزواج، حصلت عائشة على بعض الحقوق مثل التزين ولبس ملابس ألوانها زاهية مبتهجة حتى فستان صيفي يكشف عن ذراعي وزيارة جارتها دائما، وشجعت عائشة ابنتها على الغناء والرقص كما تشاء. هذا التصرف يدل على أنها حرة ، وقامت بمقاومة الثقافة التقليدية والمجتمع الإقطاعي، واختلفت تصرفاتها عن تصرفات خديجة التي رفضت تصرفاتها جملة وتفصيلا ، كما قالت لأمها "**إني أعني كل كلمة قلتها، وإذا كان يعجبك أن تغني ابنتها عند الجيران وترقص ابنتها، فهل تعجبك أيضا أن تدخن، كالرجال؟!، نعم، ها أنت تدهشين! أكرر على مستمعك أن**

عائشة تدخن، وأن التدخين صار لها كيفا لا تملك الامتناع عنه، وأن زوجها يعطيها العلبة ،ويقول لها بكل بساطة (علبتك يا شوشو)، رأيتها بنفسي وهي تأخذ النفس وهي تخرجه من فمها وأنفها أو ما تسمعين، لم تعد تخفي عنى ذلك كما كانت تفعل أول الأمر، بل دعتني إليه مرة بحجة أنه مهدئ للأعصاب الحامية ....."[٣٧]

روت خديجة لأمها قيام أختها عائشة بالتدخين وشرب الخمر "**سوف يسقيها الخمر، بل إني أقطع بأنه فعل فإني شممت مرة في فمها رائحة غريبة، وسألتها عنها وضيقت عليها رغم إنكارها، أؤكد لك أنها شربت الخمر وأنها بسبيل اعتيادها كالتدخين.**". **٣٨**وقيام عائشة بالتدخين وشرب الخمر ليست تصرفات جيدة ولو في عصرنا الحاضر، ولا يستحق أن نطلق على ما فعلته أنه فكر جديد يستحق الإشادة به.

أما **خديجة** فحالتها مختلفة عن باقي إخوتها فكانت خديجة في العشرين من عمرها، فهي كبرى أخواتها فيما عدا ياسين، ومظهرها يتناقض بشكل صارخ مع عائشة الجميلة، "**وكانت قوية ممتلئة مع ميل إلى القصر أما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه، ولكن ليس إلى القدر الذي يغتفر له.**"**٣٩** بالإضافة إلى مظهرها، فإن شخصيتها أفضل من عائشة، ولم تكن بنفس براعتها الفائقة في التدبير المنزلي والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا، ورغم مشكلتها الطبيعية فهي تعد أما بالفطرة وقلبها عامر بالحنو نحو الأسرة التي لا تعفي أفرادها من مرارة التهكم عليها.

ودائما ما بقيت في البيت لمساعدة أمها على الأعمال المنزلية، وليس عندها فرصة للخروج من المنزل، أخيرا، تزوجت إبراهيم شوكت وهو رجل أكبر منها بعشرين سنة، فهي وأختها مسكينتان في تلك الأسرة أمام نفوذ أبيهما.

بعد الزواج كسبت خديجة حق إدارة العائلة باجتهادها في الواجبات المنزلية، فوافق زوجها على تدبير الشؤون المنزلية بعد الزواج، وكانت تدبر كل شيء في الأسرة، وأصبحت مشغولة في الواجبات المنزلية من الصباح إلى الليل، وأكثر من ذلك، كان زوجها وابناها تحت أمرها، وقد وصفها زوجها إبراهيم:" **مسكينة كان بينها وبين الراحة عداء مستحكما، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة**

طويلة تستغرق النهار كله فلا تسكن حتى تأوي إلى الفراش، يجب أن يذعن كل شيء إلى إرادتها وتفكيرها، الخادم، الأكل، الشرب، الأثاث، الدجاج، عبد المنعم، أحمد، أنا، الكل يجب أن يذعن لتنظيمها، إني أشفق عليها، وأؤكد لكم أن بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة. "[٤٠]

تجرأت أن ترد على أم زوجها (أحيانا سميت بحرم المرحوم شوكت) بلهجة شديدة من أجل الحصول على حق الاستقلال، وطلبت الانفصال عن الأسرة الكبيرة والعيش مع زوجها وأبنائها بعيدا عن سيطرة الأسرة، ونجحت خديجة في ذلك، "**قد حدثت تغيرات في نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء في أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، واستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع في جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلت عنه حماتها ودواجنها .....**"**٤١** هذه الأحوال نادرة الحدوث في مصر في المجتمع الإقطاعي خاصة مع تمتع أم إبراهيم بمكانة عليا بين أفراد أسرتها.

وبالنسبة إلى أحمد عبد الجواد، فقد ربطت بين أسرته وأسرة شوكت أواصر الود الخالص من عهد الجدود، وكان للراحل منزلة الأب من نفسه، وكانت أرملته عنده في منزلة الأم، وحرم المحروم شوكت خطبت له أمينة بنفسها، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هذا كله فآل شوكت أناس صداقتهم شرف، لا لأصلهم التركي فحسب، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة فإذا كان السيد من أواسط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال.

لذلك، فإن حرم المرحوم شوكت ليست امرأة عادية هنا، فهي رمز الأسرة الإقطاعية، وإساءة خديجة إليها رمز لمقاومتها للنظام الأبوي الإقطاعي، وتصرفاتها تدل على أنها تريد الاستقلال بحياتها ولا تريد أن تعيش بنفس نمط الحياة التقليدية الإقطاعية، وقد نجحت في الحصول على ذلك، لذلك يمكن القول إن خديجة امرأة ذات فكر جديد حتى إن كمال كان معجبا بشجاعتها.

زينب: أعطت الثقافة التقليدية القديمة للرجل الحق في تطليق الزوجة، فيمكن للرجل أن يطلق زوجته كما يشاء، ولكن بالنسبة للنساء فالعكس، ولكن في الثلاثية توجد امرأة اخترقت هذه التقاليد والعادات، هي زينب، ابنة محمد عفت صديق عبد الجواد التي تزوجت من ياسين.

من المعروف في ذلك العصر أن كل امرأة تلازم المنزل مثل: أمينة وعائشة وخديجة، ويحظر عليها الخروج بدون إذن الأب أو الزوج، لكن زينب تجرأت وقامت بالذهاب إلى مسرح كشكش مع زوجها ياسين بعد الزواج، وهذا الأمر أدهش أمينة وخديجة، لأنهن لم يسمعن بهذا الاسم ولم يذهبن إلى هناك قط، وعندما سمعت كل من أمينة وخديجة وعائشة وفهمي وكمال بهذا الأمر، عبر كل منهم عن رأيه وخاصة خديجة التي قالت في حنق: "**ياسين أعقل من أن يدير رحلة كهذه، ليس قلة العقل عيبه، ولكن به خنوع لا يليق بالرجال، أقطع ذراعي إن لم تكن هي حرضته**.....[٤٢] **اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءته عن ايحاء عجز عن مقاومته خصوصا وأنه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الأليفة**.....[٤٣]

بالإضافة إلى ذلك، فإن أمينة قد مازج انتقادها الصامت شعورها الطافح بالمرارة والغيظ، كان منطقها يردد فيما بينها وبين نفسها إما أن تنال الأخرى الجزاء، أو فلتذهب الحياة هباء، لذلك قررت أن تخبر السيد أحمد عبد الجواد بهذا الأمر.

وفي ذلك العصر، فإن تصرف زينب قد قاوم الأخلاق القديمة طبقا لرأي أمينة وخديجة، ورغم أنها أحبت ياسين كثيرا، إلا إنه بعد علمها بمحاولة اعتدائه على الخادمة لم تسامحه، وغادرت بيت ياسين في اليوم التالي دون تردد، وفي اليوم الثالث، أخبرت أسرة ياسين أنها تريد الطلاق ، ووصف الراوي ذلك في قوله: "**كأنها غدت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا تعد ما كان. أجل هجرته مخدعها فقضى الليل في حجرة الاستقبال** ..."[٤٤]

وفي اليوم الثالث، ذهب أبوها إلى أحمد عبد الجواد قال: "**يا سيد أحمد، جئتك برجاء، يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن. هذا الأمر أدهش أحمد دهشة كبيرا. وهو لم يتصور أن يبعث رجل فاضل كالسيد محمد عفت إلى المطالبة بالطلاق. لم يتصور أن تدعو هذه الهفوات إلى الطلاق مطلقا، بل لم يجر له على بال أن تجيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدا** ، "**فخيل إليه أن الدنيا انقلبت رأسا على عقب.**" [٤٥] **في رأي ياسين، المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة عار عظيم عليه. ما عرف "أيهما الرجل وأيهما المرأة؟! ليس عجيب أن ينبذ الإنسان حذاء أو أن ينبذ حذاء صاحبه!** "[٤٦] في نظره، البيوت للنساء والدنيا للرجال، وللرجال حق مطلق في فعل ما يشاؤون وما على النساء إلا الطاعة، ولكن العصر تغير ومع مرور الزمن، أخيرا، وافق أحمد طلب

زوجة ابنه على الطلاق، ويرمز هذا الأمر إلى تغلب المرأة على الكثير من الصعوبات والعقبات في سبيل الحفاظ على كرامتها رغم صعوبة الأمر آنذاك، ومن ثم علق الكاتب آمالا كبيرة على المرأة في كسب حقوقهن من خلال زينب زينب ممثلة النساء اللواتي تمتعن بوعي شديد.

زبيدة وزنوبة وجليلة من النساء الفاسقات

ذكر الكاتب العوالم أمثال: (زبيدة وجليلة وعطية) في الثلاثية، وهن يمثلن النساء من الطبقة الشعبية، وينتمين إلى صفّ العوالم والعاهرات، فزبيدة وجليلة عالمتان مشهورتان حاذقتان في الغناء، وتمتلك كل منهما مجموعة موسيقية وبيت يسهر فيه الرجال كل ليلة. "**بعد نشوب الحرب الأولى العالمية، صارت مصر" دولة الحماية" للانجليز، صار تناقض الأمة بين الشعب المصري والمستعمر الإنجليزي تناقضا رئيسيا في مجتمع مصر في ذلك الحين** "[٤٧]، فخلال الحرب الأولى العالمية، أقدم المستعمر الإنجليزي على اغتصاب مصر، وأصبح الفلاح يعيش في فقر شديد، ومات كثير من الفلاحين في ساحة القتال وأشرف معظم الفلاحين على الإفلاس، أما العمال فأصبح الكثير منهم عاطلا عن العمل، ولم يستطع معظم الشباب أن يتوظفوا بعد التخرج.، وصارت بعض النساء خادمات وبعضهن أصبحن عاهرات من أجل كسب الرزق.

سعت النساء الفقراء لتطوير مهنة العاهرات في السوق، وساعدت الحقوق الخاصة التي كانت ممنوحة لجنس الرجال إلى تطوير هذا المجال، ومن ثم ازدهرت هذه المهنة مع مرور الأيام، أما عن مهنة العاهرات في مصر في الثلاثينيات فقد وصفها الكاتب بعيني كمال "**ينتظم تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من الوجهة المضادة، في طريق ملتو ضيق، كانت الرؤوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى، وعلى الجانبين بدت مضيفات الطريق قائمات وقاعدات يقلبن في وجوههن المقنعات بالزواق الفاقع أعين الترحيب والإغراء، ولا يمضي آونة حتى يمرق أحدهم من التيار إلى إحداهن فتتبعه إلى الداخل ، وقد مسحت عن عينيها نظرة الإغراء لتحل محلها نظرة الجد والعمل.**

وكانت المصابيح المركبة فوق أبواب البيوت والمقاهي تضيء الطريق بأنوار المجامر وتبغ الجوز والنارجيلات." رسم الكاتب ازدهار مهنة "أما الأصوات والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزيكة اليد وتصفيف الأيدي المراقعة وزعيق الشرطي والشخير النخير

وسعال الحشاشين وصراخ السكاري واشتغاثات مجهولة وقرع عصى وغناء فردي وجماعي وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كل حسناء هنا في متناول اليد، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير....[٤٨]

أبدى الكاتب شفقته على العاهرة التي أطلق عليها اسم عطية، وتجنب وصف جسدها أو مظهرها بالفسق كما كان يفعل مع باقي العاهرات، بل أكد أنها أم مسكينة وشدد على ذكر ألمها بشكل غير مباشر، فهي عاهرة عملت عند "العالمة جليلة" ما زالت في شبابها، ولكنها مطلقة عندها أبناء وليس لها مصدر للرزق، لا بد أن تعمل عاهرة من أجل أبنائها، وكانت تغطى كآبتها المعتمة بالعربدة، وتمتص الليالي النهمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط في أنفاسها الوجد الكاذب بالمقت، فكانت نموذجا للمستعبدات والمستأسدات كما قال في الرواية" **والاستعباد شر صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر** "[٤٩]

وبعد شرب الخمر، "فإذا لم توقفها عند حدها علا صوتها وتشنجت ثم بكت وتقيأت. في الوقت نفسه لا يمكننا القول إن عطية فاسقة بقدر ما يمكن أن نسميها بالأم المسكينة المملوءة بالحب لأبنائها، وقد وصفت صديقتها حالتها وحبها لابنها "روحها المسكينة في ابنها إذا مسه سوء طارت أبراج عقلها..."وأخيرا لخص كلام جليلة حالتها "يا لها من امرأة طيبة عاثرة الحظ، لا تمارس هذه الحياة إلا مضطرة...".

تجاوزت العاهرات أحزانهن بالأغنية والضحكات العالية، ففي أيام العز يجري الرجال ورائهن، وعندما يمضي الشباب ويكبرن في السن، يتركهن بالرجال بلا شفقة كما قالت " السلطانة (لقب زبيدة في صف العوالم)":" **في أيام العز، كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائي والآن إذا لمحوني على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر... "** [٥٠]

في أعمال نجيب محفوظ، أبدع الكاتب كثيرا في رسم صورة العوالم على اختلافهن واختلاف ظروفهن، ركز الكاتب على وصف ثلاث عوالم في الثلاثية، أطلق عليهن أسماء جليلة وزبيدة وزنوبة؛ جليلة كانت العالمة مشهورة في البداية التي احتلت مكانا في قلوب الرجال في عالم الغناء والرقص، جمعت المال واشترت البيوت في أيام العز، وعندما كبرت في السن استأجرت دفعة من النساء اللواتي في حاجة إلى المال ليقمن بنفس الأعمال التي كانت تقوم بها في شبابها.

أما زبيدة فهي كانت مشهورة مثل جليلة في البداية، وتمتعت بالجوقة والبيت الفاخر لجذب الشخصيات ذات المكانة الرفيعة في المجتمع، ولكنها أنفقت كل مالها مثل التراب بعد أن أدمنت تدخين الكوكايين حتى أفلست.

أما زنوبة، فكانت عوادة عند خالتها زبيدة، عملت عاهرة في البداية، ولكنها كرهت حياتها كساقطة. قررت أن تتمرد على هذه الحياة، وعزمت على الزواج ممن يحبها لتصبح زوجة طيبة وأم لطيفة، فلا مستحيل على أهل العزيمة، وأخيرا قد تحقق حلمها وتركت حياة الذل والهوان.

سوسن المرأة الثائرة:

في الثلاثية، ترمز سوسن للنساء اللواتي حصلن على الحرية والسعادة، فهي امرأة من الجيل الثالث تمثل طبقة العمال، كان أبوها عامل يعمل في أحد المصانع، وقد ذاقت الفقر منذ طفولتها. لذلك كانت رغبتها في مواجهة الفقر صادقة، كما قالت لأحمد:" **لست من طبقة العمال مثلي! كلانا يحارب عدوا واحدا، ولكنك لم تخبره كما خبرته ولمست آثاره الكريهة في أسرتي، وغالبته أخت لي حتى غلبها فماتت.**"[٥١]، كان تدرس الماركسية وترغب في الاشتراكية العلمية، وكانت تحرر المقالات في مجلة "الإنسان الجديد "، وكانت توزع المنشورات ضد الإقطاعية والإمبريالية، وبمساعدتها استطاع أحمد إبراهيم شوكت التمرد على أسرته وترك الفكر البرجوازي، وتزوجت من أحمد وعزما النضال معا من أجل الدفاع عن حرية الإنسان "**كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنها كانت تعمل أكثر مما يستوجب تحرير المجلة، فما تزال تقرأ أو تكتب وبدت جادة شديدة الذكاء، وشعر من أول الأمر بقوة شخصيتها، حتى كان يخيل لي إليه بعض الأحيان رغم عينيها السوداوين الجذابتين وجسمها الانثوي اللطيف – أنه حيال رجل قوي الإرادة حسن التنظيم.**"[٥٢]

كانت تحرص على متابعة الأوضاع السياسية وتهتم بالسياسة الوطنية والعالمية كما قالت لأحمد: "**لهذا يحب المصريون الألمان؟ كراهية في الانجليز، وسوف يمقتونهم في الغد القريب، ،إن الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سينطلق من سجنه ليستقبل في بلادنا، من المضحك أن الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم !!**"[٥٣]

رسم الكاتب صورتها : امرأة جديدة ذات فكر ماركسي تحارب بشجاعة في معركة ثورية لتسهم في تحرير الإنسان كما قالت:" **قد يكون في الإسلام اشتراكية، ولكنها اشتراكية خيالية كالتي**

بشرها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنه يبحث عن حل للظلم الاجتماعي في ضمير الإنسان بينا أن الحل موجود في تطور المجتمع نفسه، أنه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفراده، وليس فيه بطبيعة الحال آية فكرة عن الاشتراكية العلمية ، وفضلا عن هذا كله فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطورية تلعب فيها الملائكة دورا خطيرا، لا ينبغي أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا في الماضي البعيد .[٥٤]

وفي الحقيقة، هي شخصية مثالية في المجتمع المصري في ذلك الوقت، مثال للفتاة الماركسية التي تمثل الأمل في تحرر النساء في مصر والعالم العربي، ففي رأي الكاتب حرية النساء وسعادتهن حلم لن يتحقق بسهولة، ويجب على النساء أن يخرجن من الأسرة إلى المجتمع، ويتوظفن لطلب الحرية والسعادة، وفي الوقت نفسه، شجع الكاتب النساء على امتلاك الأفكار الجديدة، والمساهمة في تحرر الوطن؛ لأن حرية الفرد وسعادته بنيت على أساس تحرير الوطن من جمود الأفكار التي تعوق النساء عن تطوير أنفسهن فسوسن في الرواية تلعب دورا رمزيا مهما.

كانت هذه أهم الشخصيات البارزة التي أسهمت في بناء العمل الروائي وتطوره ، ورسمت لنا صورة واضحة عن صراع الفرد مع المجتمع، ودفعت بأحداث الرواية نحو التطور، ولعل طريقة نجيب محفوظ في عرض هذه الشخصيات هو ما جعلنا نتفاعل معها، إذ أنه لم يكتف بالوصف المادي ؛ وإنما غاص في أعماقها فاستطاع أن يرصد حركتها النفسية إلى جانب حركتها المادية الخارجية.

هوامش البحث

---

[١] –**رجاء النقاش: صفحات من مذكرات نجيب محفوظ، القاهرة دار الشروق د.ت، ص٢٢.**

[٢] – **صفحات من مذكرات نجيب محفوظ ص١٥.**

[3]–**埃及**图书总署 **埃及尤瑟福·沙鲁尼，《广播杂志》访谈录，** **1980年，第9页.**

[٤] –– **صفحات من مذكرات نجيب محفوظ، ص١١٧**

[5] –**جمال الغيطاني: مجالس محفوظية، دار نهضة مصر للنشر، ص٥٧**

[٦] ––**جمال الغيطاني: مجالس محفوظية، القاهرة دار نهضة مصر للنشر٢٠١٧م، ص٦٥**

[٧] -- صفحات من مذكرات نجيب محفوظ ص١٦١

[8] – المجالس المحفوظية ص٦٤.

[٩] – صفحات من مذكرات نجيب محفوظ ص٤١.

١٠ –غالي شكري: جوميه ونجيب محفوظ، مكتبة الآداب، بيروت ١٩٥٩ م ،ص ٢

١١ –نجيب محفوظ، بين القصرين، دار الشروق ٢٠١٥م، ص ١١

١٢ – بين القصرين ص٢٣

١٣ – بين القصرين ص٥١

١٤ –نجيب محفوظ، السكرية، دار الشروق ٢٠١٧م، ص٢٤٣.

١٥ – السكرية ص٢٤٤.

١٦ – بين القصرين ص٨٠

١٧ – بين القصرين ص٨١

١٨ – بين القصرين ص٢٨٠.

١٩ – بين القصرين ص٣٥٥.

٢٠ – بين القصرين ص٤٠١.

٢١– بين القصرين ص٤١٦.

٢٢ –نجيب محفوظ، قصر الشوق، دار الشروق، عام ٢٠١٧م، ص٤٦٧.

[٢٣] – قصر الشوق ص٤٨١.

[٢٤]– المجالس المحفوظية ص٦٧

[٢٥] – بين القصرين ص٦.

٢٦ – بين القصرين ص١١.

٢٧ –المرجع السابق: ص١٢.

[٢٨] – المرجع السابق: ص١٩.

٢٩ – بين القصرين ص٩.

٣٠ – بين القصرين ص٣٠.

٣١ –المرجع السابق ص٣٠.

٣٢ –المرجع السابق: ص٣١.

٣٣ –المرجع السابق: ص٣١.

٣٤ – بين القصرين ص١٨٤.
٣٥ –المرجع السابق: ص١٨٦.
٣٦ –المرجع السابق: ص١٨٦.
٣٧ – قصر الشوق ص١٤٥.
٣٨ –المرجع السابق: ص١٤٨.
٣٩ – بين القصرين ص٣٣٠.
[٤٠] – بين القصرين ص٣٣.
[٤١] – بين القصرين ص٣٣.
[٤٢] – بين القصرين ص٣٥٦.
[٤٣] –بين القصرين ص٣٥٧.
[٤٤] –المرجع السابق ص٤٦٥.
[٤٥] – المرجع السابق ص٤٦٥.
[٤٦] – المرجع السابق ص٤٨١.
[٤٧] –杨濑城，《埃及近代史》,中国社会科学出版社,1985年,第254页。
[٤٨] – ، قصر الشوق ص٣٦٨.
[٤٩] – السكرية ص٨٦٦.
[٥٠] – السكرية ص٨٦٦.
[٥١] – السكرية ص٨٤٠.
[٥٢] – السكرية ص٩٣٣.
[٥٣] –المرجع السابق: ص٩٣٦.
[٥٤] – السكرية ص٩٢٨.

المصادر والمراجع:
أولا–المصادر:
نجيب محفوظ :
- بين القصرين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٥م
- السكرية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٧م

- قصر الشوق، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٧م

ثانيا- المراجع:

جمال الغيطاني، المجالس المحفوظية، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة، ٢٠١٧م

٥٤ -杨濒城，《埃及近代史》,中国社会科学出版社,1985年,第。

غالي شكري: جوميه ونجيب محفوظ، مكتبة الآداب، بيروت ١٩٥٩ م